الباب الثاني

فرنسا ولبنان

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

العهد الانتدابي

١٩١٨ - ١٩٤٣

- ١ -

قوة أثر وسهولة مناوأة فرنسا للحركة العربية في لبنان وظروف لبنان الخاصة المساعدة

إن مناوأة فرنسا للفكرة والحركة العربية في لبنان كانت وظلت أشد أثراً وأبرز مظهراً وأكثر يسراً . وكانت طبيعة لبنان الاجتماعية والروحية والدينية وما مر بلبنان من أحداث لفرنسا فيها أصابع وآثار مما ساعد على ذلك مساعدة كبيرة .

فأكثرية لبنان القديم (الصغير) نصرانية مارونية ، ولموارنة لبنان تقاليد تاريخية ودينية ترجع إلى آماد بعيدة . ووحدة المذهب قد جمعت بين الموارنة وفرنسا حيث يدين الفريقان بالكثلكة ورآسة البابا الروحية . وفي لبنان طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد أيضاً تجمع وحدة المذهب كذلك بينها وبين فرنسا . وكان ما حصلت عليه فرنسا منذ القرن السادس عشر من الدولة العثمانية من منح تجارية وثقافية وملاحية ، قد انقلبت مع الزمن الى امتيازات اضطرت الدولة المذكورة الى احترامها في عهود ضعفها الاخيرة وجعل فرنسا تعتبر نفسها حامية النصارى وخاصة الكاثوليك الذين يدخل في عدادهم الموارنة .

ولقد اختصت فرنسا كاثوليك لبنان وموارنته بعطف أو بتعبير أصح رأت أن تختصهم بذلك لمآرب استعمارية . فأخذت البعثات الافرنسية تنشىء المعاهد والمدارس في ظل تلك الامتيازات في مختلف انحاء لبنان تعلم أطفال النصارى فيها تاريخ فرنسا ولغة فرنسا وحب فرنسا ، وتلقنهم أنهم ليسوا من العروبة في شيء وأن العروبة بعبع إسلامي وبداوة متوحشة . وجاء فريق الرهبان اليسوعيين الجزويت الذين

طردوا تقريباً من فرنسا نتيجة لثورتها الكبرى الى لبنان واستقروا فيه وانشأوا المدارس كما انشأوا الجامعة الافرنسية المعروفة باليسوعية ، ونالوا من حمايه فرنسا ومددها ومساعدتها ما حرموه في وطنهم لأن دعوتهم متسقه مع المنهج الذي كانت تترسمه .

فنشأ من كل هذا مع الزمن روابط وعواطف متبادلة بين فرنسا والكاثوليك والموارنة في لبنان ، حتى لقد صارت اللغة الافرنسية لغة الموارنة والكاثوليك في البيوت والاعمال وصارت الاسماء الافرنسية اسماء بنات هذه الطوائف وابنائها في بيروت وأنحاء لبنان الأخرى تقريباً ، وحتى صار هؤلاء يرون في فرنسا حامياً أو كما يسمونه « اما حنوناً » ويتمنون ان يكونوا ضمن حمايتها الفعلية ، وحتى صارت فرنسا ترى فيهم الأبناء الأبرار وينعتهم ساستها وكتابها بافرنسيي الشرق ، وترى لنفسها بسببه حقوقاً ونقاليد ومصالح تبعث فيها الطمع في بسط سيطرتها أو نفوذها على بلاد الشام وخاصه على لبنان ، مما ظهرت آثاره أولاً في بعض الوثائق الصادرة من دار القنصلية الافرنسية في بيروت وفي بعض المواقف التي بدا فيها موارنة لبنان وكاثوليكه في أثناء الحرب كانت تكأة للاتحاديين في التنكيل برجال الحركة العربية الشاميين دون تفريق ، وثانياً في مراسلات الحسين مكماهون ، وثالثاً في مواقف فرنسا وسلطاتها من الحركة العربية في العهد الفيصلي على مما ذكرناه في الفصول السابقة من الكتاب .

وأكد هذه الروابط والعواطف بصورة قوية ومستمرة حوادث لبنان وسوريا الطائفية الدموية التي أخذت تقع عقب جلاء حملة ابراهيم باشا المصري في اواسط القرن التاسع عشر ، والتي بلغت ذروتها عام ١٨٦٠ حيث تدخلت فرنسا كوكيلة عن الدول الأوروبية العظمى تدخلا فعليا وأوسلت حملة عسكرية الى بلاد الشام لحماية أرواح المسيحيين . ونتج عن هذا التدخل وتلك الفتن نظام لبنان الصغير الاستقلالي والاداري الذي امتد الى منتصف الحرب العالمية الأولى ، والذي كان في الحقيقة شبه دولة ضمن الدولة العثمانية . حتى كان الشخص الذي يقترف جريمة في بيروت وغيرها فيفر الى لبنان ينجو ولا تجرأ سلطات الدولة العثمانية على مطاردته .

وبالاضافة الى الكتلة الكاثوليكية المؤلفة من الموارنة والكاثوليك الآخرين

ففي المنطقة الساحلية والغربية بما فيها لبنان التي احتلتها القوى الافرنسية عام ١٩١٨ وصارت تسمى لبنان الكبير بعد ذلك أقليات مسيحية اخرى يجمع بينها وبين فرنسا وحدة الدين مهما اختلفت المذاهب كان اندماج كثير منها في رغبات ومناهج ودعايات فرنسية سهلا، لأن تأثير الدين في الشرق كان وما يزال هو العامل الأقوى في الترابط والتكتل ، ولأن ما كان يتسع من فتن بين النصارى والمسلمين وما كان للمسلمين من تفوق مادي وعددي ومعنوي في بلاد الشام قمين بأن يجعل أغلبية النصارى على اختلاف المذاهب يرون انفسهم أقرب الى فرنسا ويرونها أجدر بحمايتهم.

استدراكات في صدد مظاهر العروبة الحديثة في لبنان

هذا مع التنبيه أولاً على أن صحف التاريخ والتقاليد التي ما زالت مذكورة تذكر أن لبنان قلما عرف المنازعات الدينية قبل أصابع فرنسا ، وأن منازعاته إنما كانت منازعات سياسية حزبية عربية ومحلية مما يعرف بالقيسية واليمنية والتي كان يندمج في كل منها أناس من مختلف الطوائف في حزب او صف واحد فيكون فيه الماروني والكاثوليكي والأرثوذكسي والمسلم والشيعي والدرزي ، وتكون الخصومة بينهم وبين الحزب الآخر الذي يكون فيه كذلك أناس من مختلف الطوائف المذكورة . وثانياً على ان محاضر تحقيق تلك المنازعات والفتن كانت تقع في أواسط القرن التاسع عشر ومشاهدات معاصريها المدونة تدل بصراحة على ان أصابع الأجانب ومنها أصابع فرنسا كانت تلعب في النصارى والدروز وكانت من اسباب ما يقع ويشتد من منازعات وفتن بين الطائفتين في لبنان ، والذي امتد اثره الى دمشق وكان منه الصدام بين مسلميها ونصاراها ، وثالثاً على ان النصارى في لبنان لم يكونوا بمعزل تام عن الفكرة العربية الحديثة والحركة بسبيلها فقد كان بعضهم من اوائل الذين اعتنقوا الفكرة في عهد الدولة العثمانية وقبل اعلان الدستور العثماني ، وتضامنوا في الحركة في سبيلها مع بعض المسلمين وأسسوا بعض الجمعيات التي قامت ببعض النشاط على ما ذكرناه في الجزء الاول من الكتاب ، كما ان من نصارى لبنان من استغرق بالعروبة وامجادها واللغة العربية وآدابها

ومفاخرها استغراقاً عظيما في الحقب الاخيرة من عهد تلك الدولة فضلاً عن الأولى وصاروا من اعلامها المشهورين وفرسانها المبرزين ، ومنهم من كان ينظم القصائد والأناشيد منذ أربعين عاماً بدعوة العرب الى اليقظة والعمل على إستعادة مجدهم كالشيخ ابراهيم البازجي المشهور. اما المسلمون في هذه المنطقة فمع انهم كثرة كبيرة قد تعدل في عددها عدد المسيحيين من مختلف الطوائف ان لم تزد عنه ، ومع ان ميولهم المستلهمة من ظروف لبنان ذكرياته ومنازعاته وعلاقة نصاراه بالأجانب ثم من دينهم العربي واورومانهم العربية وتاريخهم العربي الممتد في اعماق الحقب الطويلة متسقة مع الفكرة العربية فإنهم مقسومون الى طوائف اعتاد بعضها ان ينظر الى بعض نظرة غير مستحبة من الناحية العقائدية جعلته يعيش عيشة انعزالية تقريباً في نطاق طائفيته وتقاليده الخاصة .

ومهما يكن من امر فمن الحق ان يقال ان غير المسلمين السنيين من سكان هذه المنطقة كانوا في الحقبة الاخيرة من عهد الدولة العثمانية يعيشون كل منهم في جوه وتقاليده ونزعاته ونزغاته . وقد استثنينا المسلمين السنيين لأن صفتهم هذه التي تجمع بينهم وبين غالبية سكان بلاد الشام أولاً وبلاد العرب ثانياً وبلاد الدولة العثمانية ثالثاً والبلاد الاسلامية الاخرى رابعاً كانت تجعل مجال حيويتهم ونشاطهم واتصالاتهم ومشاركاتهم اوسع .

الآمال في انبعاث طوائف لبنان في يقظة العروبة ومساعداتها

ومع ذلك فلقد كان من الممكن بل ومن الطبيعي أن تضعف آثار هذه الروح الانكماشية وبواعثها ، وان تخف حدة تلك الفوارق والنزعات حتى تزول من الحياة العامة الدنيوية وان ينتهي الامر الى مستقره الطبيعي من قيام الفكرة القومية والأخوة الوطنية الشاملة مقامها ، وان تنسيك فيها هذه الطوائف والعناصر لو لم تُبل سوريا ولبنان بفرنسا المستعمرة الطامعة المفسدة المفرّقة .

فمهما كان من تعدد في الطوائف في لبنان فإن هناك حقيقة لا يمكن حجبها وهي وحدة اللغة والتاريخ والمصلحة والبيئة بل والاورمة التي توحد سكان لبنان اولا وتوحدهم مع سكان سوريا ثانياً ومع العرب في سائر اقطارهم ثالثاً ، وان هـــذه

الوحدة من اقوى العناصر على نجاح الفكرة القومية وانسياك الناطقين بالضاد فيها وازالة ما بينهم من آثار الاهواء والدسائس التي وقعت قبل بزوغ الفكرة العربية الحديثة اذا ما تيسرت وحدة التربية والتعليم في نطاق الروح القومية الذي كان حقيقاً ان يكون في ظل سلطان عربي يستمد كيانه ومناهجه من الفكرة القومية الحديثة وانكفت سموم الدسائس عن النفث فيها ، ومثل هـــذا قد كان في امم واوطان اخرى سكانها مختلفون في مذاهبهم واورومانهم بل ولغاتهم اكثر بكثير من هذا الاختلاف .

وليست دعوى هذه الوحدة تلقى جزافاً حتى بالنسبة لمن يدعى ان موارنة لبنان فينيقيون . حيث ان مـن الثابت علمياً ان الفينيقيين او الكنعانيين الذين هم الفينيقيون او منهم ليسوا الاّ موجة من موجات الجزيرة العربية التي ينتسب الى اورماتها الدروز والشيعيون وغيرهم من المسلمين . هـــذا فضلا عن ان القرون الطويلة المتصلة التي عاش سكان لبنان فيها معاً قمينة بتوطيد هـذه الوحدة الموطد مثلها في الشعوب الأوروبية الحاضرة في مدى أقصر ومع الاختلاف الاشد في الدماء والاورومات واللغات .

- ٢ -

خطط المناورة الافرنسية للحركة العربية وتيارانها منذ سنة ١٩١٨

وحينما انهارت الجبهة التركية في فلسطين ودخلت حملة فيصل الشام وسارع هذا الى ارسال شكري الايوبي ليقيم الحكم العربي في بيروت بالنيابة عنه وقف الافرنسيون في وجه هذا الامتداد الذي حاوله فيصل ، وتمكنوا بالتآمر مع الانكليز وتنفيذاً للاتفاق الغادر بينهم من اعادة هذا النائب الى دمشق وطي اعلام الثورة العربية من سماء هذه المنطقة التي خفق فيها ، لأنهم رأوا في هذا الامتداد خطراً على منهجهم الاستعماري الذي اختطوه من قبل نحو بلاد الشام وخاصة نحو لبنان والساحل الشامي ، ثم اخذوا يعملون منذ حلولهم في هذه المنطقة على توطيد اقدامهم وتحقيق منهجهم ، فعينوا حاكماً افرنسيا عسكريا ، وحكموها حكماً

عسكريا واسع الشمول ، وظلت هذه الصفة في الحكم قائمة طيلة العهد الفيصلي ، وملأوا دوائر الحكومة بالافرنسيين وبمن يثقون بولائهم وفنائهم فيهم وخاصة من الموارنة ، وشرعوا من جهة اخرى في تسيير تيارات دعاياتهم وتلقيناتهم وخططهم في مختلف الوجهات التي تضمن لهم توطيد القدم وتحقيق المنهج ، وكانوا يتوسلون الى ذلك بكل وسيلة من رشاو واغراء حيناً وتهديد وارهاب حيناً آخر .

وكان في ما توخوه من ذلك أن تكون هذه المنطقة بالاضافة الى ما رسموه لها من اطار استعماري خاص مناوي، للفكرة العربية فيها وحائل دون تدفق تيارها إليها مقراً للدعاية ضدها في الداخل ، وميداناً لاعداد الوسائل المتنوعة الدعائية والحربية والسياسية التي تساعدهم في قفزتهم الى هذا الداخل وتوطيد قدمهم وتحقيق منهجهم فيه ، مما كانت آثاره تظهر في جبل الدروز وفي دمشق والبلاد السورية الداخلية الاخرى أثناء المواقف والاحداث والأزمات المتنوعة في العهد الفيصلي على ما ذكرناه في الفصول السابقة .

ولقد سارت الدعاية المعاكسة للفكرة العربية في لبنان في مجار متنوعة ، منها ما كان موجهاً ضدها مباشرة ومنها ما كان موجهاً بصورة غير مباشرة وعن طريق التفريق بين العرب وتفكيك عرى وحدتهم وروابطهم وتحويل اتجاههم عنهـــا وإشغالهم بأنفسهم ومنافعهم العاجلة . وقد كان هذا كله يجري في آن واحد .

فمن جهة أخذت تُبث في النصارى وخاصة في الموارنة الذين كانوا عمود لبنان الصغير الفقري والذين هم العنصر الاكبر المعتز بكيـــان وعنعنات وتقاليد خاصة أكثر من غيره فكرة أنهم ليسوا عرباً وانما هم أنسال الفينيقيين ، وأن العرب ليسوا الا غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على بلاد الشام ، وقد عبروا في التاريخ كما عبر غيرهم وإن كانوا أبقوا لغتهم ودينهم ، وأن الفينيقية هي الاصل الذي يجب أن ينتسب إليه اللبنانيون وأن يتمسكوا به ، وأن الفكرة العربية العنصرية لا تقوم على أساس صحيح بالنسبة الى سكان سوريا عامة واليهم بصورة خاصة ، كما أنها تجعل ربطاً غير طبيعي بين اللبنانيين خاصة والسوريين عامه وبين سكان جزيرة العرب البدو المتغلغلين في مجاهل الجهل والوحشية بعد ما قطع أولئك ما قطعوا من المراحل الشاسعة في طريق المدنية والحضارة والثقافة .

ومن جهة أخذت تُبث في نصارى لبنان بنوع خاص أن الفكرة العربية والوحدة العربية السورية والوحدة العربية الجامعة اللتين تستهدفها هذه الفكرة ليست الا ستاراً يخفي وراءه فكرة السيطرة الاسلامية وإخضاع النصارى لها ، وأن في هذا عودة العهد الذي كانوا يقاسون فيه ما يقاسون من مهانة وما جرى عليهم فيه من حيف وجنف ، وان واجبهم ومصلحتهم وعاطفتهم تقضي عليهم أن يتضامنوا مع الافرنسيين أبناء دينهم ، وأن يتمسكوا بهم كحماة منقذين لهم من شر مثل ذلك العهد البغيض .

ومن جهة أخذت تثار ذكريات القرن التاسع عشر الدموية وأنها إنما كانت بسبب التعصب الشديد الذي يشعر به المسلمون ضدهم ويذكرون بما كان من فرنسا نحوهم من عطف ومسارعة للحماية والانقاذ في حوادث ١٨٦٠ وتقوي فيهم فكرة فرنسا الحامية الطبيعية لهم .

ومن جهة أخذت تُبث فيهم مغالطات وسموم متنوعة باسم البحوث العلمية والوطنية والمنطقية والتاريخية والثقافية ، فأولاً إن الديانة الاسلامية ليست ديانة وطنية وإنما هي دخيلة والديانة الوطنية الحقيقية هي المسيحية لأنها نشأت في بلاد الشام ! وثانياً إن الفكرة العربية لا تقوم على اساس علمي لان سكان سوريا وإن تكلموا اللغة العربية فهم مزيج من عناصر ودماء متنوعة واكثرهم يمت الى أصل غير عربي ، ولأن الفكرة تشمل العراق وجزيرة العرب ، وبين سوريا ولبنان خاصة وبين العراق أولا ثم بينها وبين جزيرة العرب ثانياً من الفروق الجغرافية وغير الجغرافية ما يجعل الانسجام مستحيلا وغير طبيعي ، فضلا عن أن اللبنانيين الذين قطعوا شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة والثقافة والاقتصاد والعلوم والفنون يتأثرون كأقلية وسط هذه الكثرة العظيمة بتأخرها الثقافي والاقتصادي والمدني فيتأخرون معها بدلاً من أن يستمروا في خطواتهم المتقدمة في ذلك المضمار ! وثالثاً إن لسوريا ولبنان فروقاً مميزة عن سائر البلاد العربية من حيث الثقافة والمدنية والمناخ الجغرافي ومن حيث سير التاريخ والصلات بعالم الحضارة ؛ وهذه الفروق لا تسوغ شمول الفكرة القومية العربية ولا تجعلها قائمة على اساس ومنطق ومصلحة ورابعاً إن الفكرة القومية العربية فكرة رجعية وغير إنسانية حيث تستمد من

العصور المظلمة المتوحشه وترتكز على الانانية والأثرة في حين ان الواجب يقضي بالانطلاق من الأفكار العتيقة والاندفاع بسرعة الى ساحة الاخاء الانساني العـــام والأممية التي تجمع جميع البشر في جـــامعة واحدة دون تفريق بين جنس ودين وعرب وغير عرب وشرق وغرب .

ومن جهة أخذيلوح لهم بالمطامع والمنافع ؛ فعدم اندماجهم في الفكرة العربية والوحدة السورية سيعود عليهم بأحسن العوائد ، فتكون السيادة في لبنان لهم ، وتكون لهم في حكومته ودوائره المناصب والمرتبات ، ويخلصون نهائياً من مركز الأقلية المحكومة المزدراة المهيضة الجناح ، ويتبوّؤن مركز الاكثرية الحاكمة فتكون لهم العزة والكرامة .

ومن جهة أخذت تبث في الشيعيين والدروز في جبـل عامل وبعلبك وجبـل لبنان دعايات متنوعة ايضا ؛ فالفكرة القومية العربية هي فكرة السنيين المسلمين ، ونجاحها يعني نجاح السنة وفوزهـــا ، فاذا اندمجوا فيها ضاعت مميزاتهم وبلعتهم الاكثرية ، ووقعوا تحت سيطرتها واحتقارها كما كانوا في السابق في حـين أنهم إذا ظلوا في نجوة منها احتفظوا بشخصيتهم وتقاليدهم وحافظوا على مصالحهم وتمتعوا بما تتمتع به الطوائف الاخرى ذات الكيان المتميز في الوظـائف والمناصب والرأي والوجاهة والمراسم ومختلف شؤون البلاد العامة والخاصة .

- ٣ -

آثار هذه الخطط والتيارات المبكرة

وهـكذا أخذت تيارات هذه الدسائس والمغالطات البارعة التي لم يخل بعضها من صلة بأحداث التاريخ وذكرياته البغيضة تتلاطم في بحيرة لبنان الصغيرة وتفعل فعلها في طوائف لبنان المتنوعة ، ومنه ما آتى أكله باكراً حيث استجاب النصارى وبنوع خاص جمهرة الموارنة والكاثوليك اليها حالاً وكان مـن آثار هذه الاستجابة رحلة البطرك الماروني الى باريس عام ١٩١٩ لتوثيق الصلات من جديد بين فرنسا والموارنة والالحاح على فرنسا في الثبات على موقف الحـــامي لهم ولكيان لبناني

مستقل تحت إشرافهم حيث أسفرت الرحلة عـــن تعاطي الرسائل بين البطرك وكليمنصو في توكيد اهداف الرحلة وتثبيتها والتطابق فيها ، ثم رحلة الوفد الذي رأسه داود عمون الى باريس لمعارضة مطالب فيصل في مؤتمر الصلح وللمطالبة بلبنان الكبير باشراف فرنسا ومساعدتهـــا ، ثم الاحتجاجات التي كان يرسلها البطرك الماروني من آن لآخر على ما يتقرر في دمشق من قرارات تهدف الى استقلال بلاد الشام، بما فيها لبنان، ثم تأييد الموارنة والكاثوليك وبعض الفئات المسيحية الأخرى لفكرة لبنان الكبير باشراف فرنسا ومساعدتها أمام لجنة الاستفتاء الأميركية ، ثم استجابة بعض مسيحي جبل عامـل والموارنة الى الافرنسيين وحملهم السلاح ضد العصابات التي كانت تقوم بازعاج السلطات الافرنسية في العهد الفيصلي الخ .

ولقد كان من آثار اندماج جمهرة الكاثوليك والموارنة في هذه الدعايات والتلقينات أن صار زعماؤهم الدينيون والسياسيون يصرحون بها في مختلف المناسبات؛ ومن ذلك تصريح لأميل إده أحد كبار زعماء الموارنة جاء فيه أن لبنان ليس عربياً وأن ثقافته غربية إفرنسية وأنه الجزيرة النصرانية في بحر العرب المسلمين ؛ وأن ظل هذا المعنى وما يتصل به من كيان لبنان الخاص ووجوب تحفظه إزاء العروبة وحركاتها ووجوب توطيد الروابط التقليدية التي تربطهم بفرنسا سياسياً وثقافيـــاً واعتبار فرنسا هي الحامية والراعية الطبيعية لهم شعار سياستهم ومنهجهم . حتى إن مطران الكاثوليك في بيروت لم يتورع من القول سنة ١٩٤٩ وبعد أن كان من فرنسا ما كان من عدوان فظيع على كرامة لبنان وحريته واستقلاله واعتقال رئيس جمهوريته وحكومته الذين أرادوا أن يزيلوا من الدستور المواد الانتدابية البغيضة عام ١٩٤٣ على ما سوف نذكره بعد « إنه لا يوجد في لبنان قلب لا ينبض بحب فرنسا مع أنه يعرف أنه لا يوجد بين المسلمين الذين هم نصف سكان لبنـــان قلب لا ينبض بكره فرنسا وأن فئات نصرانية كثيرة منها الأرثوذكس والبروتستانت الذين يزيدون على المئة الف نسمة تشارك المسلمين في ذلك !

ولعل نشوء الحزب السوري القومي الذي اندمج فيه كثير من شباب النصارى والمسلمين في مختلف أنحاء بلاد الشام والذي نشأ في عهد مبكر في لبنان قد كان في بدء أمره وقبل التعديلات التي أدخلت على منهاجه من أصداء هـــذه المغالطات

والدعايات حيث كان يردد أعضاؤه الفروق المميزة لسوريا عن بلاد العرب من ثقافية واقتصادية وتفكيرية وجغرافية ومدنية ويدعون الى قومية سورية ووحدة سوريا خاصة ويناوئون دعاية العروبة الشاملة ويرونها غير طبيعية وغير منطقية وفي غير مصلحة بلاد الشام .

- ٤ -

ضعف اثر تلك الخطط في المسلمين خاصة في العهد الفيصلي

ولقد كان العهد الفيصلي منذ قيامه ينشط من ناحيته ايضاً في الدعاية في منطقة الاحتلال الافرنسي المذكورة بسبيل العروبة والقومية العربية وقيام وحدة سورية عربية تشمل هذه المنطقة ، فكان الافرنسيون يقفون من هذا النشاط موقف المترصد ويبذلون جهدهم في الوقوف في وجهه وتأليب انصارهم ومواليهم عليه ، ويشددون النكير على كل من يتظاهر بالاندماج فيه والاستجابة اليه ويضيقون عليه الخناق .

ومن الحق ان نقول ان السلطات الافرنسية لم تصب نجاحاً في العهد الفيصلي في ما كانت تنهجه من مناوأة الحركة العربية في منطقة احتلالها مع ما كانت تفعله إلا في الطوائف المسيحية وخاصة في الموارنة والكاثوليك ؛ حيث ظلت الكثرة الساحقة من المسلمين السنيين والشيعيين والدروز متسقة مع دمشق في ذلك العهد بالميول والرغائب ، ومندمجة في نشاطه ، بل ولقد كان لنشاط الدعاية العربية وأنصار العروبة في لبنان آثار ايجابية في فريق من ابناء الطوائف المسيحية بما فيها المارونية والكاثوليكية ظهرت أثناء الاستفتاء الاميركي عام ١٩١٩ حيث اعرب فئات من المسيحيين عن الرغبة في الاستقلال والوحدة السورية او الاتحاد مع سوريا فضلاً عن اعلان الكثرة الساحقة من الطوائف الاسلامية رغبتها في الاستقلال والوحدة السورية العربية بالرغم مما اتخذته السلطات الافرنسية من اجراآت ارهابية في طرابلس الشام وصيدا وصور وبيروت وجبل عامل والمناطق الدرزية في لبنان ، وظهرت كذلك في قدوم عدد من رجال نصارى المنطقة الافرنسية النابهين الى

دمشق مع عدد غير قليل من مختلف الطوائف الاسلامية فيها واشتراكهم في حركتها الجياشة ، واشتراك اكثر من عشرين منهم في المؤتمر السوري وكانوا يحملون التوكيلات الموقعة من وجوه طوائفهم وأعيانها ونابهيها ، وكذلك ظهرت في القرار الجريء الذي اتخذته اكثرية أعضاء مجلس إدارة لبنان الذي كان يمثل الجبل على اختلاف طوائفه بطلب استقلال لبنان مجرداً عن إشراف فرنسا ومساعدتها ومتحداً مع سوريا

- ٥ -

اثر انهدام عهد فيصل في الحركة العربية وانصارها في لبنان

ولقد كان لانهدام عهد فيصل ووقوع سوريا الداخلية بين مخالب الاحتلال الافرنسي وتقاذفها في مختلف التجارب والدسائس والمطامع ، وحرص الافرنسيين على ابقاء سوريا في نطاقها الضيق المحلي واشغالها بما حل فيها ، وتفرق القائمين بذلك العهد أيدي سبا ، واصلات السيف فوق رؤوس القوميين الواعين واضطرارهم الى السكون او المسايرة ، وعدم تنظيم حركة دعوة قومية مستمرة تحارب في الوقت ذاته الدعايات المتنوعة أثر اليم في لبنان استغلته السلطات الافرنسية استغلالاً واسعاً ، حيث ضاعفت جهودها ونشاطها في صدد منع أي حركة قومية والحيلولة دون أي دعوة عربية ، ونشرت رقابة شديدة على الصحف ، ومنعت تشكيل الاحزاب والجمعيات وعقد الاجتماعات ، وأصلتت سيف الارهاب فوق الرؤوس ، فاستولى على القوميين الواعين وعلى الطوائف الاسلامية بنوع خاص في السنين الأولى التي أعقبت الانهدام شيء من الخوف والانكماش من الحركة العربية والدعوة العربية أو السورية العربية .

اعلان لبنان الكبير وهدفه

ومن اول ما فعلته بعد ذلك الانهدام اعلان ضم المناطق التي لم تكن من لبنان وهي مدن بيروت وصيدا ومرجعيون والبقاع وطرابلس الشام وحصن الاكراد

وبعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع وما يتبعها من قرى وأراض الى لبنان القديم وتسميته بلبنان الكبير واعلان استقلاله تحت انتدابها . والاقضية الاربعة الأخيرة كانت تابعة لولاية سوريا والبقية كانت تابعة لولاية بيروت. وكان ذلك في آخر شهر ايلول عام ١٩٢٠ . وقد قصدت بذلك فصل هذه البلاد التي كان يسكنها أكثرية ساحقة اسلامية سنية وشيعية عن بلاد الشام وقد كانت ابدت رغبتها في الاستفتاء في الانضمام اليها، وقطعها عن مجال العروبة وحركتها في الشام من جهة ومنح لبنان مساحات زراعية واسعة كان محروماً منها وكانت حياته الاقتصادية بسبب ذلك حرجة جداً ، حيث لم يكن لبنان الصغير إلا جبالاً اكثر ما يستطاع الاستغلال الزراعي فيه هو الفاكهة وشجر التوت لتربية دود القز .

ولقد كان هـذا الضم بالرغم من السكان الذين هم من انصار الوحدة السورية والعروبة الطبيعيين ، ومن تمام السخرية أن ممثلي فرنسا الذين يعلمون هذا حق العلم لم يتورعوا عن الكذب والقول انهم يفعلون ذلك تحقيقاً لرغبة الاهلين .. وقد كان وقع هـذا الضم ذا تأثير أليم في نفوسهم ، ولم يرضوا به قط ، وكانت لهم مواقف عابدة بسبيل الاحتجاج عليه وخاصة إبان الحركة الدستورية السورية ، حيث عقد ممثلوهم مؤتمراً في دمشق رفعوا فيه الصوت عالياً بطلب الانضمام الى سوريا على ما ذكرناه في الفصول السابقة ثم إبان حركة المعاهدة الاستقلالية التي كانت نتيجة لما جرى في سوريا سنة ١٩٣٦ على ما سوف نشير اليه بعد . وقد كان من الموجع لهم في هذا الضم ان غدوا يعتبرون اقليات في لبنان بالنسبة للكتلة المارونية ، لأن فرنسا ظلت تعتبر كلاً من السنيين والشيعيين والدروز طوائف مستقلة وكان عدد تلك الكتلة على هذا الاعتبار يفوق عدد كل طائفة على حدتها، ومن ثم صار المنصب الرئيسي في الدولة للموارنة وكاد لبنان يصطبغ بسبب ذلك بالصبغة المسيحية المارونية من الوجهة الرسمية حيث يكون رئيس الدولة فيه مارونياً ، مع أن الطوائف الاسلامية في لبنان لو احصيت احصاءً دقيقاً واعتبرت كلها مسلمة لا تقل بعددها عن الطوائف المسيحية مجتمعة وزيادتها عليها مؤكدة بسبب تفوقها في النسل .

جهاز الدولة بعد اعلان لبنان الكبير

وقد عين الافرنسيون أحد زعماء الموارنة وهو حبيب السعد رئيساً للبنان

الكبير باسم حاكم عام ؛ فكان ذلك إيذاناً عملياً بصبغ لبنان الجديد بالصبغة المارونية ، ومكافأة للموارنة الذين كانوا عماد موقفهم وسلطانهم . ثم ساروا بعد ذلك على سياسة توسيد مناصب الدولة ووظائف الحكومة الأنصار والموالين والمائعين والمستسلمين والطامعين والمتشبعين بالتعصب الطائفي وبالفكرة التي غرسوها وظلوا يتعهدونها وهي عدم الصلة بين لبنان والعروبة وأن لبنان بأكثريته المسيحية يجب أن يكون دولة مسيحية يقوم فيها كيان المسيحيين بارزاً قوياً ، وينتهي به عهد عزلتهم الطائفية الذي كانوا يعيشون فيه في زمن الدولة العثمانية ، والذي كان المفروض أن يظلوا يعيشون فيه في وحدة سورية وعربية مما كان له تأثير قوي فيهم جعلهم يحرصون عليه كل الحرص ويتنكرون لكل حركة أو دعاية عربية رغماً عما في هذا التلقين من مغالطة في قياس الماضي بالمستقبل الذي يكون العرب فيه إخوانا متساوين في الوطن والدولة والعروبة دون أن يكون للفروق الدينية والمذهبية والطائفية أي دخل وتأثير .

ومات هذا الرئيس بعد حقبة غير طويلة فأقيم وكيل عنه ضابط إفرنسي اسمه القومندان ترابو فتقبل لبنان ذلك بدون مبالاة ، بل إن مجلس لبنان التمثيلي أقر هذا القومندان حاكماً عاماً أصيلاً نتيجة لتأثير السلطان الافرنسي من جهة ومصداقاً لما قلناه من الانسجام التام بين النصارى الذين اعتبروا أكثرية لبنان وبين فرنسا بحيث كانوا وظلوا يعتبرون حكم فرنسا للبنان طبيعياً بأي شكل جاء هذا الحكم .

- ٦ -

دور رؤساء الدين في لبنان

ولقد كان لرؤساء الدين دور خطير في السياسة التي ترسمها الافرنسيون . فان طبيعة الأقليات الدينية جعلت هؤلاء الرؤساء منذ عهد الدولة العثمانية بمثابة رؤساء طوائفهم السياسيين والاجتماعيين أيضا ؛ وكانوا يمثلونها أمام الحكومة وفي مجالسها وسائر مراسمها العامة ويسعون في رفع ما يقع عليها من حيف ويديرون شؤون أوقافها ومنشآتها الثقافية والخيرية ؛ وجعلت طوائفهم ترى فيهم الأقطاب الذين

تلتف حولهم والمرشدين الذين تسترشد بهم في المهمات والخطوب ، والحماة الذين يرعون مصالحها ؛ بحيث كانت كلمتهم فيها هي النافذة وأمرهم هو المطاع ؛ فساعد على هذا وذاك نظام الكهنوت المسيحي المستقر الذي يجعل الرئيس الديني كياناً لا بد منه في شؤون الطائفة الدينية والمدنية. فكل هذا جعل لرؤساء الدين مركزاً خطيراً نافذاً عرف الافرنسيون كيف يستغلونه في تنفيذ سياستهم بما وثقوه بينهم وبين هؤلاء الرؤساء من روابط وأمدوهم به من نفوذ، واظهروه لهم من احترام ، ومنحوهم إياه من منافع ، وحققوه لهم من مطالب .

دور رؤساء الموارنة الدينيين خاصة

وكان دور الرؤساء الموارنة أقوى الادوار في هـذه السياسة لأن الطائفة المارونية أكثر الطوائف عدداً فضلا عن أنها تعتبر نفسها العنصر الاصلي في لبنان الضارب في أعماق تاريخه وجوداً وتقاليد، حيث تطابق هؤلاء الرؤساء مع السلطات الافرنسية في موضوع طبيعة لبنان وكيان لبنان وصبغة مسيحية لبنان ووجوب الاحتفاظ للبنان بكل ذلك ، والانسجام التام مع الافرنسيين وسياسة فرنسا وممثليها والتمسك بها واعتبارها الحامية التي لابد منها للبنان ونصرانيته وموارنته والأم الحنون التي ارتضع لبنان ونصاراه وموارنته منها لبن الثقافة والحضارة ، ثم النأي به عن الاندماج في سوريا والعروبة ؛ حتى لقد صار للبطرك الماروني في هذه المواضيع وغيرها من شؤون لبنان العامة سياسية وغير سياسية المركز الممتاز على غيره والكلمة النافذة والصوت الداوي ، وحتى صار يعتبر نفسه ويعتبره الموارنة حامي كيان لبنان ، بل وحتى صارت حكومة لبنان تقره على ذلك (١) ،

---

١ – للدلالة على هذا نورد كتاباً ارسله البطرك الى رئيس الجمهورية اللبنانية بشأن المصالح المشتركة حينما استلمتها حكومتا لبنان وسوريا من الافرنسيين واتفقتا على ابقائها مشتركة بينهما تدار بنظام اتحادي :

« لقد كنا ولا نزال نطالب باستقلال لبنان الناجز والآن اطلعنا على اتفاقية المصالح المشتركة بين لبنان وسوريا وتعيين مجلس اعلى له اختصاص مستقل عن الحكومة وعن مجلس النواب في التشريع والتعيين والادارة. فعجبنا لهذا الاتفاق الذي لم يسمع بمثله بين الدول المستقلة اذ قد يفضي الى الاضرار

وحتى صار له تقاليد مراسمية فيزوره المندوب السامي الافرنسي عقب مجيئه لتلقي التهنئة منه وتزوره الحكومات اللبنانية فور تأليفها كانـــا تسعى اليه لتقدم اليه الولاء وتحصل منـــه عـلى البركة ، وحتى صار من تقاليده أن يزار ولايزور تقريباً وان يزار أولاً على كل حال مهما كانت صفة الزائر ، وأن لا يستقبل أي زائرحتى ولا رئيس الجمهورية على باب قصره بل تستقبله الحاشية ويدخل الى حضرته في البهو حيث يكون في انتظاره (١) ؛ وأن ينقل مـن مقره الصيفي الى مقره الشتوي وبالعكس بموكب ، وأن ينزل الى بيروت إذا نزل في الظروف الهامة بموكب ، الخ ..

بالمصالح اللبنانية فضلاً عن تأثيره في استقلال لبنان الناجز . وعليه نرجو فخامتكم أن توقفوا المشروع ونرغب الى مجلس النواب أن لا يوافق عليه مع رغبتنا الدائمة في أن تكون العلاقات بين سوريا ولبنان ودية قائمة على أساس الثقة المتبادلة » .

وقد أجاب رئيس الجمهورية البطرك بما يأتي :

« ان ما ذكر من الاتفاق المنعقد بـــين الدولتين بشأن سلطة التشريع لا يخلو فعلاً من بعض التباس . ولهذا عمدت الحكومة الى الصراحة فقدمت مشروع قانون الى مجلس النواب يخولها حق الاشتراع الذي كان يمارسه الافرنسيون كما أن المجلس السوري وافق في جلسته الأخيرة على نص مماثل تماماً للنص الذي عرض على المجلس النيابي اللبناني فزال بذلك كل لبس أو غموض . وستتولى الحكومات حق التشريع فيما يتعلق بالمصالح المشتركة . واني أنتهز هذه الفرصة لأتقدم الى غبطتكم شكري . وشكر الحكومة اللبنانية على سهركم الدائم على استقلال لبنان الذي هو هدفنا الأول في جميع الأعمال » .

وهذان الكتابان تبودلا في اواسط ١٩٤٤ أي في العهد الوطني الاستقلالي الذي كان يمثل الشعب فيه حكومة وطنية ومجلس نيابي منتخب .

والمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان ظلت أربعة وعشرين عاماً ١٩٢٠ — ١٩٤٤ تدار من قبل الافرنسيين مباشرة ويشرعون لها فلم يكن البطرك يرى في هـــذا خطراً على لبنان ولا محلاً للاعتراض والأحتجاج فضلاً عن أنه كان راضياً كل الرضاء عن السلطات الانتدابية التي كانت تجمع في يدها كل شيء وتلعب في كل شيء في لبنان وتحجب عنه أي معنى من معاني الاستقلال الناجز ، ولكنه لم يلبث أن رأى الخطر ماثلاً الآن لأن يد فرنسا قد ارتفعت وشيئاً من الاتحاد الاقتصادي الذي فيه حياة لبنان بالدرجة الأولى قد ظل قائماً بينه وبين سوريا مما يمت الى ما نحن في صدد تقريره !

١ — ننقل النبذة التالية عن جريدة الحياة عدد ٢٤٦ وتاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٧ في صدد زيارة رئيس الجمهورية والوزارة للبطرك بمناسبة عيد الجلاء ، فالبطرك دعاهم الى وليمة غداء في قصره ليهنئهم بالجلاء وفقاً للتقاليد التي ذكرناها . وفي النبذة صورة ثانية مما تقدم :

« لبى فخامة رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء والوزراء دعوة غبطة البطريرك المـــاروني

ولقد زار البطرك الماروني باريس عام ١٩١٩ فاستقبل فيها استقبالا حافلا ورسمياً وتبادل الرسائل مع كليمنصو في صدد كيان لبنان وصلة فرنسا الوثقى به فكان ذلك تدشيناً لما اخذ يجري بعده مما ذكرناه من تقاليد .

ولقد كان قوة تأثير فكرة كيان لبنان وصفته المسيحية أو المارونية والخوف من إغماره بأكثرية إسلامية أن صار بعض زعماء الموارنة ورؤسائهم الدينيين يعتنقون فكرة فائدة إنسلاخ المناطق العديدة التي ضمت إلى لبنان والتي يسكنها اكثرية إسلامية ساحقة والتي ذكرناها في مناسبة سابقة ليصبح لبنان وطناً قومياً مسيحياً يأوي اليه من يشاء من نصارى سوريا أيضا ، ويصرحون بها أحيانا ، بل لم يتورع أحد كبار رؤسائهم الدينيين وهو المطران مبارك الذي يتمتع بنفوذ عظيم في طائفته عن تقديم مذكرة إلى لجنة تحقيق فلسطين رحب فيها بقيام وطن قومي يهودي في فلسطين متحدياً كل عربي على وجه الارض إلى جانب وطن قومي مسيحي في لبنان وتحالف الشعبين في سبيل حماية أنفسهم من غزوات المجاورين — أي العرب ! — ومطامعهم . وكان ذلك في سنة ١٩٤٦ أي في العهد الوطني الأستقلالي ... وما يذكر أن هذه المذكرة وبعض تصريحات مثيرة من بابها أثارت الاوساط العربية والحكومة في لبنان وشنت بعض الصحف وبعض النواب حملة عليه فانبرت صحف مارونية وإفرنسية تدافع جهرة عنه وعن حريته في الاعراب عن رأيه ورأي طائفته ، ثم سافر في رحلة إلى باريس فلما عاد استقبل استقبالا عظيماً حتى كانت الزينات منصوبة له من باب بيروت إلى مقره في إحدى الضواحي وتزاحمت على السلام عليه الوفود للتبرك منه ونظمت القصائد والقيت الخطب الاشادة بوطنيته وشجاعته وجهاده ... ومن تمام الصورة أن المجلس النيابي اللبناني كان منعقداً في ذلك النهار يتناقش في الخطر العظيم الذي يهدد لبنان وشعب لبنان من جراء انتصار الغزوة الصهيونية .

فذهبوا الى الصرح البطريركي حيث اقيمت لهم مأدبة غداء فاخرة . وقد غادر الموكب بيروت في الساعة الواحدة من بعد ظهر أمس واقيمت لهم اقواس النصر في الطريق وكان السكان يستقبلونه بالتصفيق اينما مرّ . وقد رحب بهم على مدخل الصرح أصحاب السيادة المطارنة ثم استقبلهم غبطة البطريرك في بهو الدار استقبالا حاراً . ومن ثم دلفوا الى المائدة المعدة لهم فوقف البطريرك والقى خطاباً هنأ فيه فخامة رئيس الجمهورية واعضاء الحكومة بعيدي رأس السنة والجلاء وذكر الجهود المباركة التي بذلها ويبذلها فخامة اللبناني الأول في سبيل تحرير بلاده وايصالها الى المركز المعد لها بين الأمم الراقية. ثم شرب نخب المدعوين ونخب لبنان ودعا لفخامة الرئيس بالتوفيق والبركة . ورد عليه فخامة الرئيس بخطاب عدد فيه موقف البطريركية في مختلف الظروف والازمات من اجل الاستقلال ومساعيها للحصول عليه وأثنى على موقف غبطة البطريرك الحالي الذي كان وما يزال عدو الاستعمار الاجنبي بمختلف الوانه. الخ

ولقد ظلت الدعاية الأفرنسية المغرية التي أخذت تُبث في الدروز والشيعيين في العهد الفيصلي ضيقة نطاق الاستجابة طيلة قيام هذا العهد ، كما ظل نشاط هذه الدعاية واهتمامها موجهاً بقوة في الدرجة الأولى إلى الطوائف المسيحية وظلت الاستجابة اليها فيها بما يتسق مع الميول والرغائب والمطامح والذكريات لكل من الفريقين . غير أن انهدام العهد الفيصلي جعل الطوائف الاسلامية بما فيها المسلمون تقف أمام السلطات الافرنسية وجهاً لوجه دون أمل وسند .

ولقد استغلت هذه السلطات منذ البدء الطائفية في السكان وحرصت على تدعيمها لما تعرفه من التنافس والتناظر بينها منذ أمد بعيد ، فجعلت وظائف الحكومة ومراسمها واعتبارات الحياة العامة من مختلف مناحيها قائمة عليها ، وكان هذا من اشد الأعمال الافرنسية نكاية وبعد مدى في حياة لبنان والحركة العربية فيه . وقد قواه الافرنسيون في سكان لبنان ، فقوي قوة عجيبة حتى شغل الحيز الأول في النفوس ، لان فيه إرضاء شهوات ومطامع الافراد الذين يملأون عادة ميدان الحركة والحياة العامة في الامة العربية في معزل عن الشعب الغافل المستغل ، وكان من قوته أن البطرك الماروني جعل الاحتفاظ به واجبا لا مندوحة عنه لحفظ التوازن بين السكان ، ونادى به في كل مناسبة ودافع عنه بكل شدة هادفا بهذا الى الهدف الذي ذكرناه قبل وهو إبقاء صفة الاكثرية للطائفة المارونية وإبقاء المارونية صفة لرآسة الدولة في لبنان .

فكان هـــذا وذاك مما اضطر أبناء الطوائف الاسلامية إلى مجاراة الموقف والاهتمام بأنصبتها في تلك الوظائف والمراسم والاعتبارات على الأساس الطائفي حفظاً لكيانها ومصالحها . واستجاب إلى هذا بنوع خاص المستوظفون والوجهاء وأصحاب الثروات والزعامات من أبناء هذه الطوائف الذين رأوا في هذا الاساس باباً وتوطيداً للوجاهة والكسب ، وغدت هذه الامور تشغل أفكارهم وتدفعهم إلى التزلف للسلطات من جهة وبث الدعوة بين أبناء طوائفهم إلى المطالبة بحقوقهم

وأنصبتهم من جهة أخرى .

وهكذا وجدت الدعاية والتوجيهات الافرنسية المغرية والاستعمارية معاً صداها في هذه الطوائف ، واستطاعت أن تثير فيها العصبية الطائفية ، وأن تكاد أن تجعلها تستغرق في اهوائها ومنافعها ويرصد بعضها بعضا ، وتفسد ما بينها من صلات الاخاء والتشارك في العواطف والمفهومات الوطنية والقومية ، وكادت الروح القومية العربية أن تمنى بشيء من الفتور بين أنصارها الطبيعيين الذين اندمج كثير منهم في فكرة كيان لبناني مستقل والتمسك بها بل والدفاع عنها وكاد يغدو قصارى همهم الدفاع عن حقوق طوائفهم وكفالة مصالحهم ومنافعهم وكرامتهم في نطاقها الضيق .

- ٧ -

سير الافرنسيين في لبنان كسيرهم في سوريا

ولم يكن سير الافرنسيين في لبنان ليختلف عنه في سوريا في العهد الانتدابي ، بل كان هنا أقوى أثراً وأبعد مدى وأيسر سيراً بسبب ما كان من الانسجام بينهم وبين أكثرية السكان ، وبسبب الطائفية المقيتة التي قووها وجعلوها عماد كل شيء ، وضمنوا بها اكثر رؤساء الطوائف وزعمائها ونابهيها والطامحين فيها ؛ حتى لقد رأى بونسو أن يقول في تقريره أمام لجنة الانتدابات عام ١٩٣٠ إن لبنان راض عن نظام الانتداب ومندمج فيه وإن سوريا فقط هي التي ترفضه وإنه ليس هناك مشكلة من هذا النوع بين فرنسا ولبنان !

ولقد كان الموظفون الافرنسيون يملأون دوائر الحكومة اللبنانية ومصالحها فضلاً عن إدارتهم المباشرة للمصالح المشتركة بين سوريا ولبنان على ما ذكرناه في الباب الأول ؛ وكان المستشارون الافرنسيون أصحاب الشأن الأول في أعمال الحكومة ومشاريعها ومصالح أصحاب المصالح فيها ، وكان الموظفون الافرنسيون يتقاضون المرتبات والعلاوات الضخمة ، وكانت الرشاوى والمحسوبيات والشفاعات هي الوسائل الناجعة الى قضاء المصالح والمطالب ، وكان المندوب السامي هو

المشرع والمنفذ والمرجع الأول والأخير في كل أمر ، وقد اتخذ بيروت مركزاً دائماً له وأحاط نفسه فيها بمظاهر السلطان الفخمة وابتنى قصراً ذا حدائق غناء لايقل في ابهته ومراسمه عن قصور الملوك ، وكانت الشفاعات والمحسوبيات والرشاوى تعمل عملها الناجع كذلك في دار المفوضية التي كانت تتدخل في كل شيء أيضاً حتى في تعيين صغار الموظفين بل والمخاتير والنواطير ، وغدا المصرف اللبنـــاني السوري الذي أنشيء في بيروت وأخذ يصدر أوراق العملة قبل انهدام العهد الفيصلي كما غـــدت الشركات الافرنسية والمصالح الافرنسية والتجارة الافرنسية هي الحاكمة المسيطرة على اقتصاد لبنان وثروته ومشاريعه ، والمتمتعة بالحمـــايات المتنوعة على حساب مصالح وشركات وتجارة لبنان وأهلها .

— ٨ —

أثر سوء الادارة والاستغلال في اهل لبنان ومصالحهم وعواطفهم

ومن الجدير بالقيد أنه بالرغم مما قلناه من انسجام أكثرية سكان لبنـــان في الانتداب الافرنسي واندماجها في التوجيهات والتلقينات والدعايات الافرنسية وإساغتها الحكم الافرنسي المباشر تقريباً بهدوء وسكون بل برضاء فان ما كان من تميز الاقتصاد الافرنسي وتأثيره في تعطيل مصالح أهـل البلاد وشل صناعاتهم وتجاراتهم وشركاتهم أولاً وما كان مـــن صلف الافرنسيين وحمقهم وغطرستهم الشديدة الفظيعة ثانيا ، وما كان من سوء استغـلال الموظفين الافرنسيين لمناصبهم وسلطانهم والاستغراق في رغبة الاثراء بأي طريق وإقترافهم بسبيل ذلك كل عسف وشذوذ ثالثا ، أحدث رد فعل شديد في نفوس كثير من هذه الأكثرية وحتى في نفوس كثير من الموارنة حيث أدرك الواعون من مختلف الطوائف نظرة الازدراء التي ينظر الافرنسيون بها الى الجميع ، واستخفافهم بهم وتزهمهم عنهم ، وحيث رأوا أن تظاهر فرنسا بحب لبنان وأهله وإشادتها بتقاليدها فيه ودعايتها الطويلة العريضة في صدده لم يكن لسواد عيون لبنان وأهله وإنما كانت وسيلة لبسط السيطرة على لبنان وسائر بلاد الشام بطريقه وجعلها مجال فرنسا الاستعماري على حساب مصالحها

واقتصادياتها ، وأن الروح الاستعمارية والاستغلالية والمتغطرسة هي المسيطرة على السياسة الافرنسية من جهة والمسيرة للافرنسيين كأشخاص واتتهم الفرصة من جهة اخرى .

ولقد قاسى أهل لبنان صغيره وكبيره من جراء ذلك الشيء الكثير من العنت والمهانة والارهاق وتعطيل المصالح واخفاق الشركات والصناعات المحلية فضلاً عن سوء الادارة وفساد الجهاز الحكومي وامتلائه بالمحاسيب والجواسيس والآلات والادوات الضارة المستغلة بدورها ، وسيطرة الرشوة على كل شأن من شؤون الناس مما أوجد فيهم تياراً من الاستياء والتذمر والخيبة والألم كانت تظهر آثاره في بعض الصحف غير المأجورة وفي بعض المناسبات ، كما كان من عطف كثير منهم على حركات سوريا الوطنية والثورية حتى خشي الافرنسيون عواقب ذلك فجردوا المسلمين السنيين والشيعيين والدروز مما قد يوجد في ايديهم من سلاح أثناء الثورة السورية الكبرى ، وكما كان من حركات اهل المناطق المنضمة للبنان بسبب الانضمام الى سوريا والمطالبة بالوحدة السورية على ما ذكرناه في مناسبات سابقة ، بل لقد كان يندمج في هذه الحركات أحياناً غير سكان هذه المناطق وغير مسلمين أي فئات من الطوائف النصرانية وخاصة الأرثوذكس ولم يكن يندر ان يكون بينها موارنة وكاثوليك كما جرى في عام ١٩٣٦ بمناسبة حركة تجديد المعاهدة على أساس جديد استقلالي بعض الشيء اسوة بسوريا حيث اجتمع فريق من نابهي مختلف الطوائف في بيروت وبحثوا في ما آل اليه حال لبنان فرأوا ان الوحدة السورية خير علاج لذلك . وقد سبق هذا حركة قوية في بيروت وصيدا وطرابلس الشام بالمطالبة بالوحدة السورية حينما اخذت السلطات الافرنسية تهيء وفداً باسم وفد مفاوضة ليذهب الى باريس ويوقع على معاهدة الاستقلال أسوة بما تم لسوريا حيث رفع حملة الفكرة العربية وخاصة الطوائف الاسلامية اصواتهم بهذا الطلب وقامت المظاهرات الصاخبة احتجاجا على اقصاء ممثلي المسلمين الحقيقيين عن الميدان وادخال بعض المنافقين المتزلفين لفرنسا منهم ، وأدت الى اشتباكات دموية في مدينتي صيدا وطرابلس وأضربت المدينتان إضراباً طويلا استمر في طرابلس نحو ثلاثة اسابيع ، وكما جرى شيء من هذا في عام ١٩٤٠ حيث اتفق فريق من زعماء

الطوائف المختلفة على منهج وطني قومي عربي يهدف الى الاتحاد مع سوريا ثم مع الاقطار العربية الاخرى ، وكان هذا بمثابة نواة لانضمام لبنان الى جامعة الدول العربية ، ويمكن ان تعد حركة الحزب القومي السوري الذي سبقت الاشارة اليه والذي اندمج فيه كثير من شباب لبنان على اختلاف طوائفه وخاصة طوائفه النصرانية من هذا القبيل من ناحية ما، حيث كانت تهدف الى وحدة سوريا الطبيعية واستقلالها والتمرد بشكل من الاشكال على وضع لبنان وحالته وعزلته وفنائه في فرنسا ، وهذا غير الجمعيات اللبنانية العديدة او الجمعيات العربية او الجمعيات السورية التي كانت تضم رجالاً وزعماء ونابهين لبنانيين من مختلف الطوائف والتي كانت تبذل نشاطها خارج لبنان وفي مصر والمهاجر واوروبا ضد الاستعمار والانتداب الافرنسي والتصرفات الافرنسية وفي سبيل الاستقلال والوحدة السورية مما يدل على ان احرار لبنان الذين كانوا خارج نطاق السيطرة والتأثير كانوا استقلاليين واتحاديين وقوميين .

- ٩ -

اشكال الحكم الوطني المزيف في لبنان واستمراره وطرائقها

اما الحكم الوطني فقد كان لبنان وظل الى عهده الوطني عام ١٩٤٣ محروماً من حقيقته حتى حينما اراد الافرنسيون ان يتظاهروا في مسايرة الرغبة فيه حيث كان مظاهرة لا اكثر ، يبقى فيه الافرنسيون اصحاب الشأن والسلطان الحقيقي. وكانت هذه الالوان من الحكم المزيف تقوم تبعاً لما يقوم من مثله في سوريا نتيجة للحركات والمطالب والثورات التي لم تكن تقف وان كانت تشتد حيناً وتضعف حيناً ونتيجة كذلك لفكرة التجارب والحلول النصفية . فكان الافرنسيون كلما تراءى لهم اقامة شكل من اشكال الحكم المحلي اوكلما رأوا ضرورة اوفائدة في التنفيس او المسايرة او التحذير واقاموا في سوريا شكلاً من اشكال الحكم المحلي او لوناً من الوان الحكم الوطني عمدوا الى اقامة مثله في لبنان قبله او عقبه . فحين أعلن لبنان الكبير جعلوا حاكمه العام وطنياً مارونيا على ما ذكرنا قبل

وكانوا أحدثوا قبل ذلك في سوريا نظام رئيس الدولة او الحاكم العام في دويلاتها . وحينما اعيد نظام الدولة السورية الموحدة ومجلس الوزارة الادارية بعد اخفاق تجربة التجزئة والدويلات قام مثل هذا النظام في لبنان ، وحينما أخذ بونسو يسير في خطواته في سبيل وضع دستور سوري عقب خمود الثورة الكبرى ، وقيام حكومه نيابية تتعاقد مع فرنسا لتحل المعاهدة محل الانتداب على ما كان يطالب به السوريون فعل مثل ذلك في لبنان فاصدر دستوراً له وأجرى انتخابات نيابية وقام نتيجة لذلك جمهورية لبنان الاولى ؛ مع التنبيه على أنه لم ير ضرورة لانتخاب جمعية تأسيسية تضع الدستور كما كان الحال في سوريا حيث كان يستساغ في لبنان كل ما يفعله الافرنسيون دون اهتمام بالشكل والمبدأ ، حتى لقد احتوى دستور لبنان الافرنسي مواد عجيبة خلدت طابع الانتداب الافرنسي الصريح كما خلدت صفة الطائفية وأساسيتها في توزيع الوظائف ، وكانت الراية التي تقررت في هذا العهد الراية الافرنسية وفي قرنة من قرنها الارزة بما ينطوي فيه ذلك الطابع الصريح المستساغ ، وقد نفذ دستور لبنان قراراً بما كان من انتخابات نيابية وقيام الجمهورية في حين طال الاخذ والرد بين بونسو وبين رجال سوريا في صدد الدستور ولم يصدر على الوجه المشوه الذي صدر إلا بعد سنتين ثم لم يطبق وتجري وفاقه الانتخابات النيابية وتقوم الجمهورية السورية الاولى إلا بعد سنتين ثانيتين على ما ذكرناه في الباب الاول ، وبما جرى ان الافرنسيين مع كل ما كان من استساغة لبنان لخطواتهم وسياستهم تدخلوا في الانتخابات النيابية المذكورة تدخلا فظيعاً بحيث لم ينجح إلا مرشحوها ، وسقط غيرهم الذين لم يكونوا في عداد هؤلاء المرشحين بالرغم من أنهم لبسوا أعداءً أو مضادين لسياستهم وتوجيهاتهم .

ولما عرض على سوريا في عهد جمهوريتها الأولى عام ١٩٣٢ المعاهدة التي وضعت لتقوم مقام صك الانتداب والتي كان فيها الكثير من محتويات هذا الصك والالتزامات التي يفرضها عرض مثلها على لبنان حكومة ومجلساً فأقرت بدون عناء مع ما كان من رفض سوريا لها .

ولقد كان في مطلع هذا العهد حادث يدل على ما كان ينظر اليه الافرنسيون من نظرة الازدراء والسخرية والاستهتار إلى ما يقوم في لبنان من أوضاع دستورية

ويتخذ من قررات نيابية وهو ان الشيخ محمد الجسر المسلم ولم يكن ضد الانتداب بل يصح أن يقال عنه انه من موالي فرنسا قد رشح نفسه في انتخابات رآسة الجمهورية واستطاع أن ينال الاكثرية ، فما كان من المندوب السامي إلا أن الغى الانتخاب والمجلس النيابي والدستور معاً بجرّة قلم لأنه كان يتوخى أن يكون هـذا المنصب لمسيحي ماروني ولم يكن الدستور ينص على ذلك ، ثم عدّل الدستور وجـدد الانتخابات النيابية بجرة قلم كذلك وندخل بصورة سافرة ومخجلة حتى تم انتخاب المرشح الذى أراده !! .

ولما ثارت دمشق عام ١٩٣٥ وانتهى الأمر بالمعاهدة الجديدة التي قامت بها في سوريا الجمهورية الثانية والعهد الوطني عام ١٩٣٦ نتيجة لمفاوضات باريس جرى مثل هذا في لبنان حيث أرسل وفد الى باريس ووقع فيها على المعاهدة وقامت حكومة جديدة وجرت انتخابات نيابية جديدة وأتوا بأميل اده هذه المرة رئيساً للجمهورية الثانية . ولما سحب المندوب السامي بيو المعاهدة السورية وأعلن عودته الى ممارسة صلاحياته الانتدابية فعل مثل ذلك في لبنان ، ولما انهارت فرنسا وأعيد شكل الوزارة في سوريا من قبل الجنرال دانز مثل فيشي جرى مثل ذلك في لبنان ، ولما قامت الجمهورية الثالثة الانتدابية في سوريا بعد الغزوة الديغولية الانكليزية عـام ١٩٤١ قام مثلها في لبنان . وقد قام كاترو هنا أيضاً بحركة استفتاء بهلوانية كما فعل في سوريا حيث عين بعدها الفرد نقاش رئيساً للجمهورية الثالثة وأعلن استقلال لبنان في حفلة عامة خطب فيها هو والرئيس نقاش ومنّ في خطابه على لبنان بمنحه الاستقلال من قبل فرنسا كما فعل في سوريا .

ومما جرى وفيه الدلالة كذلك على تلك النظرة أن كاترو حاول أن يظل يمارس السلطات الانتدابية في لبنان قائلا إن فرنسا الحرة قد ورثتها مع أن فرنسا الحرة لم تكن إلا حركة تحريرية تتمثل في لجنة ولم يكن قد اعترف بها كحكومة فرنسا الرسمية ، ومع أن كاترو صرح في خطابه الذي ألقاه في حفلة إعلان الاستقلال أن لبنان أصبح دولة مستقلة ذات سيادة . وقد احتج الرئيس النقاش على كاترو بسبب محاولته فما كان من هذا إلا أن أقاله وعين الدكتور ثابت محله !! وقد حاول هـذا بتحريض الافرنسيين تكثير عدد النواب المسيحيين حتى يكونوا اكثرية كبيرة

مسيطرة فأثار فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين اشتد التوتر بين الطائفتين بسببها وكاد يقع وقائع أليمة لولا تدخل الانكليز وحسمهم الموقف بحل وسط مما حمل الدكتور ثابت على الانسحاب فحل محله إتور طراد .

وهكذا يصح أن يقال إن ما كان يجري في لبنان من تجارب الحكم وما أقيم فيه من ألوان وطنية لهذا الحكم على ما كانت عليه من زيف إنما كان تبعـــاً لما كان يجري في سوريا وكنتيجة للحركات والمطالبات والثورات الوطنية التي لم تكن تقف فيها ، ومكافأة على هدوء لبنان وانسجامه وبالأصح انسجام أكثريته مع فرنسا وعدم اندماجه بما كان يقوم في سوريا مـــن تلك الأعمال التي كان الافرنسيون يسمونها أعمال شغب من عناصر شغب . حيث لم ير هؤلاء من المنطق ان يقوم في سوريا نتيجة لهذه الأعمال لون من الحكم الوطني ولا يقوم مثله في لبنان الهادىء العاقل المنسجم .

وباستثناء ما ذكرناه قبل قليل من موقف الرئيس النقاش عام ١٩٤١ وجرأة الشيخ الجسر على ترشيح نفسه في دور الدستور الأول ١٩٢٨ ثم باستثناء ما كان يقوم في الأوساط الاسلامية والمدن الاسلامية المنضمة الى لبنان بالرغم منها من حركات احتجاجية تصل أحياناً الى حد الثورة على نطاق ضيق مما ذكرناه سابقاً فانه لم يكد يقع في لبنان وبتعبير أصح من قبل جمهرة النصارى وموارنتهم أي رد فعل حيوي له صلة بالأهداف والمبادىء الوطنية الاستقلالية لكل ما كان يقوم من تجارب في الحكم تصل احياناً الى الحكم الافرنسي المباشر ممثلاً في حاكم افرنسي عام أو يجري فيه من تبديل وتغيير وإلغاء كما كان يقع في سوريا ، فقد كان يستساغ كل ما يقع كأنه شأن عادي يقع في حدود أوضاع دستورية موطدة ، وكان يوافق على كل ما يقترح ويطلب وقد رأينا أنه لما طلب من مجلس لبنان التمثيلي عام ١٩٢٣ إقرار توسيد منصب الحاكم العام للقومندان ترابو وافق على ذلك دون ما عناء . بل لقد وقع حادث عكسي طريف حيث تآمر فريق مـــن النصارى بزعامة شخص اسمه الدكتور شلفون ضد عهد المعاهدة الاستقلالية عام ١٩٣٦ – ١٩٣٨ هادفاً إلغاء هذا العهد وقيام حكم افرنسي مباشر في لبنان ! وكان ذلك في أوائل عام ١٩٣٨ حيث خطا الدكتور ورفاقه خطواتهم الأولى

بحركة تختيم مضابط تطالب بذلك ، ثم خطوا خطوتهم الثانية بعد قليل لتحقيق هذا الهدف بالقوة ، وكان عدد المتآمرين نحو ثلاثة آلاف مزودين بالسلاح والعتـــاد ، وكانت خطتهم احتلال دوائر الحكومة واعتقال الوزراء والنواب وإعلان إلغاء الحكم الوطني وعدم رضاء لبنان عنه وتفضيله الحكم الافرنسي المباشر عليه . غير ان الحكومة اكتشفت الحركة قبل نضوجها واستطاعت أن تقضي عليها في ١٧ مايس ١٩٣٨ حيث اعتقلت الدكتور وعدداً كبيراً من المتآمرين معه وصادرت ما لديهم من أسلحة ووثائق . وهذا من عجائب الحوادث الأليمة التي كانت نتيجة لدعايات فرنسا وتغلغلها في لبنان والتي انقلبت بها المناهج أبشع انقلاب وأغربه.. ومن تمام العجب المؤيد لما قلناه قبل قليل من أن حركة شلفون في تختيم المضابط كانت تجري مكشوفة وتذكر في الصحف ويتحدث عنها في المجالس دون مـــا غضاضة ولا سخط ، كأنه لم يكن حكم استقلالي وطني قائم ، وكأنه لم يكن في مفهومات الاكثرية اللبنانية في هذا الوقت أي فارق كبير بين قيام حكم وطني استقلالي يقوم على معاهدة وبين حكم افرنسي مباشر ، وكأن الثورة في سبيل هذا ضد ذاك يصح أن تكون من الأعمال الوطنية أو السائغة في حوصلة هذه الجمهرة...

ومما لا ريب فيه أن هذه الحركة لم تكن لتخلو من أصابع افرنسية بدليـــل الهدف والكثرة والسلاح والحركة الجهرية الاولى . والراجح أنها كانت من قبيل ما كان الموظفون الافرنسيون يقومون به في سوريا من مختلف الدسائس الثيمة لاحباط العهد الوطني مما كان من جملته تخويف الدروز والعلويين ونصارى الجزيرة من العهد الاستقلالي وتشجيعهم على التمرد عليه بل ودفع عناصر الشغب منهم الى استعمال السلاح ضد ممثليه وموظفيه وفاقا لخطة عامة مرسومة في باريس من قبل الأوساط الاستعمارية والعسكرية التي كانت ضد قيام عهد المعاهدة عـلى الأساس الذي قام عليه على ما ذكرناه في الباب السابق ، مع ما كان من فارق عظيم بين سوريا ولبنان ، حيث كان على رأس عهد لبنان أصدقاء فرنسا والفانون فيها الذين يرون فيها الأم الحنون الحامية التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي حال ، وحيث ظل ممثلوها يتمتعون كذلك بكل ما يتمتعون به من جاه ومال وسلطان وأمر ونهي دون ما تشاد ولا عناء ولا تجهم ولا اعتراض .

ولكن الطبيعة الاستعمارية والاستغلالية الافرنسية كانت أشد تغلغـــلا في الافرنسيين من ملاحظة ذلك وحملهم على هضم التخلي عن السيطرة الشاملة ولو في الظاهر ...

سير الافرنسيين في لبنان مثله في سوريا

هذا، ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن كل ما كان في سوريا من الافرنسيين في عهد الانتداب ثم في أثناء الحرب الى قيام العهد الوطني الثاني من سوء استعمال وسوء استغلال ومطاردة من يوصفون بأعداء فرنسا وملء المعتقلات بهم أثنـــاء الحرب وتشريد باقيهم قد جرى مثله في لبنان . وقد اشترك الانكليز الذين غزوا لبنان وسوريا مع الديغوليين في هذه المطاردة والاعتقالات والتشريدات في لبنان كما اشتركوا فيها في سوريا ، ولا نرى حاجة الى الافاضة فيه هنا مكتفين بما قلناه فيه في الباب الاول .

الفصل الثاني

العهد الوطني

١٩٤٣ - ١٩٤٦

- ١ -

الحياة النيابية الجديدة وانبثاق العهد الوطني الاول

ان العهد الذي يصح ان يسمّى عهداً وطنيا في لبنان قد قام في عام ١٩٤٣ كما قام مثيله في سوريا وبنفس العوامل والخطوات التي انتجته هناك ، حيث تقرر بالتفاهم بين الانكليز والافرنسيين او بالأحرى بضغط الانكليز بالنسبة للبنان خاصة تحقيقا لتصاريحهم عن غاية الحرب التحريرية اعادة الحياة النيابية الدستورية وامتاع لبنان وسوريا باستقلالهما وسيادتهما ، وقد جرت الانتخابات في منتصف عام ١٩٤٣ وبعد قليل من انتخابات سوريا جريا على العادة في متابعة لبنان لخطوات سوريا في احداثه . وقد كانت روح الجو والظروف التي املت هذه الخطوة مشجعة ، وكانت دعوة العروبة قوية الصوت في البلاد العربية والمشاورات في سبيل الوحدة العربية جارية في مصر فأفاد كل هذا انصار العروبة والاستقلال في لبنان وامدهم حيوية ، وكان من نتائج ذلك ان فاز في الانتخابات الشيخ بشاره الخوري ورياض الصلح وفريق كبير من جماعاتهم الذين كانوا يستشعرون بمعنى الحرية والاستقلال الصحيح والفكرة العربية قليلا او كثيراً بالرغم عن مابذله الافرنسيون من جهود وتوسلوا به من وسائل متنوعة من رشاوٍ وارهاب واغراء ودس في سبيل فوز انصارهم لضمان استمرار الحال في لبنان على الاقل على ما يرغبون ، ولقد أساءتهم النتائج الى درجة كبيرة واتهموا الانكليز بها .

واشتد استياؤهم وحنقهم بل وتشاؤمهم حينما تم انتخاب الشيخ بشاره رئيسا للجمهورية التي تعد في سلسلة العدد الجمهورية الرابعة ، واختيار هـذا رياضا الصلح رئيسا للوزراء ، فقد كان رياض بمثابة الرمز الاول للحركة العربية في لبنان ومن رجالها القديمين الذين ناضلوا نضالا متصلا مدى ثلاثين عاما في سبيلها وقضى اكثر مدة العهود الانتدابية مشرداً يناضل ويكافح في اوروبا ومصر والبـــلاد العربية الاخرى ، وكان الافرنسيون يعدونه عدوهم الاول ، وكان له ضلـع في حادث قرار مجلس ادارة لبنان عـام ١٩٢٠ ومحاولة فرار اعضائه الذين وقعوا القرار ، وهو الحادث الذي اثار الافرنسيين أيما اثارة اذ كان يعني تمرد لبنان الممثل في مجلس ادارته على الانتداب الافرنسي ، وكان ذلك في شهر ايلول من عام ١٩٤٣

حيوية الحركة العربية في هذا العهد

ولقد كان العهدالجديد فاتحة خير للحركةالعربية في لبنان حيث اخذ انصارها يتنفسون الصعداء ويستعيدون حيويتهم وآمالهم ونشاطهم ، واخذت الصحف التي يديرونها تدعو الى تدعيم العهد الجديد ومناصرته ليسير قدما في توطيد حرية لبنان واستقلاله وخلاصه من الكابوس الاستعماري الافرنسي الشديد الذي جثم على صدره والذي كاد ان ينطبع بطابع الخلود فيه ، واظهار وجهه العربي الذي يمثله في الحقيقة اكثر من نصف سكانه .

وقد صدف ان كانت دعوة العروبة في هذا الظرف تشتد قوة وصوتا والآمال تتضاعف في مستقبلها والمشاورات في سبيل الوحدة العربية تجري في مصر فزاد هذا في حيوية العهد الجديد وقوته وآماله .

— ٢ —

توطيد الاستقلال وتعديل الدستور وعروبة لبنان في هذا العهد

ولقد كان من اهم ما اهتم له رئيس الوزارة إزالة كل ما يناقض استقلال لبنان

وسيادته . وقد اعلن رئيس الوزارة في البيان الوزاري الذي القاه في مجلس النواب في ١٧ ايلول من عام ١٩٤٣ عزم وزارته على توطيد استقلال لبنان وسيادته الكاملة ، ونيته في تعديل الدستور ورفع المواد التي تتناقض مع ذلك ، وحمل حملة شديدة على الطائفية وذهنيتها ، واعلن عزمه كذلك على العمل على توطيد بنيان امة والقضاء على هذه الذهنية ، وقال ان لبنان متمسك بحدوده واستقلال كيانه ، وانه على هذا الاساس عربي يمت الى العروبة بأوثق المظاهر والصفات ، وانه يجب ان يتعاون مع شقيقاته اشد التعاون على ذلك الاساس ، وانه يعتقد ان هذه الشقائق تريد فقط ان لا يكون لبنان مقراً للاستعمار ولا ممراً له ، وانه سيحقق هذه الرغبة فيوطد للبنان عزته وكرامته ، وانذر كل موظف يسير على ما كان يسير عليه بعدد مرجعية غير مرجعية الحكومة اللبنانية وتلقي وحيه من غيرها ، واوجب استعمال اللغة العربية وحدها في مصالح الحكومة ، وقطع على نفسه عهداً بتنفيذ هذا المنهج وعدم البقاء في الدست اذا ما ظهر له استحالة ذلك . فقوبل البيان بالهتاف الطويل من اعضاء مجلس النواب الذين كانت اكثريتهم مسيحية ، وكان نواب الموارنة منهم اكثر نواب الطوائف الاخرى عدداً ، كما شارك آلاف المستمعين في داخل البرلمان وخارجه في هذا الهتاف وسطر عاصفة من الحماس والابتهاج والاغتباط ، ونالت الوزارة ثقة تكاد ان تكون اجماعية على اساسه ، حيث لم يشذ عن ذلك الا اميل اده صاحب فكرة الوطن القومي المسيحي اللبناني والفاني في السياسة الافرنسية .

بواعث رياض في بيانه واثرها

ولقد كان رياض بارعاً في إعلانه تمسكه بحدود لبنان وكيانه وتعاونه مع الاقطار العربية الاخرى بصفته قطراً عربياً على هذا الأساس ؛ حيث ارضى غير المتعصبين من عقلاء النصارى وخاصة موارنتهم الذين كان اشد ما يخشونه من الحركة العربية ان يندمج لبنان في وحدة سورية او وحدة عربية فيفقدوا شخصيتهم ويعودوا اقلية مهيضة كما كانوا في عهد الدولة العثمانية . وقد حرصت الدعاية الافرنسية على

بث الخوف الدائم من هذه الناحية خاصة وتصويرهم العرب والاسلام الذي يدين به اكثرية العـــرب العظمى لهم بعبعهم الاكبر ليضمنوا تمسكهم بهم وفنائهم فيهم وتطلعهم الى فرنسا كحامية لهم ، كما كانوا يخشون أن تؤدي قوة الحركة العربية الى انسلاخ المناطق الواسعة التي ضمت الى لبنان القديم فيعود صغيراً لايستطيع ان يقوم بأوده ولا تكون له إمكانية ما إلى الحياة بمفرده ، على ما ذكرناه في مناسبة سابقة . ونقول استطراداً ان رجال الحركة العربية قد لمسوا هذه النقطة الحساسة فيهم وسهولة نفوذ الدعاية الافرنسية منها اليهم فقرروا منذ البدء مراعاتها ، وكان أول تسجيل رسمي منهم لهـا في قرارات المؤتمر السوري العام سنة ١٩١٩ حيث قالوا ان للبنان الحق في اختيار شكل الحكم الذي يرغب فيه شريطة ان يكون في منأى عن الاستعمار ، ثم ظلوا يراعونها في كل مناسبة ، وآخر ما كان من هذا ميثاق جامعة الدول العربية الذي الحق به ملحق خاص بلبنان بسبيل توكيد احترام كيان لبنان وحدوده كذلك فان رياضاً في براعته ارضى أنصار العروبة لأن المهم عندهم ان يظهر وجه لبنان العربي وأن يندمج في الحركة العربية العامة ، وأن يكون في منأى عن الاستعمار الافرنسي .

ولقد كان البيان الذي كان بطبيعة الحال بالتطابق مع رئيس الجمهورية الماروني وأعضاء الوزارة الذين ينتسبون الى مختلف الطوائف والمقابلة الحارة التي قوبل بها من النواب والشعب مفاجأة عظمى للعالم العربي الذي كان يرى في لبـــنان المعصم المنيع لفرنسا وسلطانها الاستعماري في الشرق العربي ، واعلاناً صارخاً لتمرد ممثلي الطوائف اللبنانية على هذا السلطان الذي استهتر طيلة خمس وعشرين عاماً بمصالح لبنان وكرامة اهله وخدعهم بالتمويه والتضليل لمآربه وجشعه واستغلاله ، وبرهاناً على ما كان من تطور في الأفكار اللبنانيـــة ، وصدىً لما بدا من النشاط العربي ومشاورات القاهرة في سبيل الوحدة او الاتحاد العربي والآمال القومية العربية .

موقف الافرنسيين من التعديل وعدم ارعوائهم بالواقع

ولقد كان ينبغي أن يرى الافرنسيون وقـــد اصبحوا يمثلون حركة التحرير الافرنسية هـــذا الامر طبيعياً ، واثراً من آثار تطور العالم وهتافات الحرية

والاستقلال وحقوق الشعوب المستضعفة وقصد حماية العالم من ديكتاتور النازيين والفاشيين التي ظل الحلفاء يهتفون بها اربع سنين طويلة ، وان يرحبوا به ؛ ولا سيما انهم أعلنوا بالاتفاق مع بريطانيا ان هدف الغزو الجديد هو تحرير بلاد الشام ومنح سوريا ولبنان استقلالهما وسيادتهما ، وانهم يمثلون فرنسا الحرة متمردين على استسلام فرنسا وخضوعها للالمان ووقوعها تحت سنابكهم لتشرب من ايديهم كأس المهانة والاحتلال ، وانهم اضطلعوا بقيادة حركة النضال في سبيل انقاذها ، وان يدركوا ان تلك المواد اذا ساغ ان تكون في دستور وضع في ظل الانتداب الرسمي القائم فان من الطبيعي ان لا تبقى في العهد الاستقلالي الجديـــد الذي لم يبق للانتداب الرسمي فيه قائمة ، ولكن الروح الاستعمارية المتعسفة المتغلغلة فيهم لم تكن لتهضم هذا ، ورأوا في البيان الوزاري وما قوبل به من حماس وترحيب في داخل المجلس وخارجه مفاجأة عظمى لهم ، ومحاولة لزلزلة سلطانهم الاستعماري الذي ظنوه منيعاً خالداً قوي الاساس في لبنان واللبنانيين على الاقل ، واعتبروا ذلك حركة من حركات رياض الصلح عدوهم الأول فحسب ، وظنوا أنهم إذا أعلنوا معارضتهم لها حوّلوا الناس عن موقفهم وجردوا رياضاً من التأييـــد فأذاع هيللو مندوب لجنة التحرير الافرنسية الديغولية التي كانت اتخذت الجزائر مركزاً لها بياناً تحذيرياً قال فيه مغالطاً ان الدستور اللبناني بمثابة عقد بين طرفين لا يحق لطرف ان ينفرد في تعديله وان النصوص المراد تعديلها تنطوي على ماعلى فرنسا من التزامات انتدابية موكولة لها من عصبة الامم لايمكنها التخلي عنها، وان احترام العقود أساس استقلال الامم وكرامتها، وانه واثق من أن اللبنانيين سيتروون في اتخاذ اي خطوة تتناقض مع ذلك ، فرد رياض عليه مذكراً ان في الدستور مادة صريحة تجعل لمجلس النواب الحق في التعديل

التعديلات الدستورية المقترحة

ثم قدم مشروع التعديل الى المجلس . وكان يتضمن الغاء خمس مواد لا يمكن أن تأتلف مع أي معنى من معاني الاستقلال والسيادة وتهدف الى تخليد طابـــع الانتداب وسلطان الدولة المنتدبة مما لا يعقل أن يرد في صلب دستور الدولة ، ومما

يدل في الوقت ذاته على نظرة السخرية والازدراء التي ينظر بها الافرنسيون الى الأوضاع الدستورية وأشكال الحكم الوطني في لبنان وعلى روح الغطرسة والسيطرة المتغلغلة فيهم ؛ وكان يتضمن كذلك تعديل خمس مواد اخرى تعديلا يكفل ذلك المعنى ويرفع القيود التي قيدت بها صلاحيات رئيس الجمهورية ، ويجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة . وهذه هي المواد الخمس التي اقترح الغاؤها :

المادة (٩) ان الاحكام المقررة في هذا الدستور يعمل بها مع الاحتفاظ بما للدولة المنتدبة من الحقوق والواجبات الناتجة عن المادة (٢٢) من عهد جمعية الامم وعن صك الانتداب .

المادة (٩٢) تؤكد الجمهورية اللبنانية في هذا الدستور حسن قصدها في المحافظة على روح السلام والوفاق مع الدول الاخرى وخصوصاً الدول المجاورة الواقعة ضمن نطاق الانتداب الافرنسي التي يرغب لبنان في توفيق عرى الولاء معها في جو هادىء من الوئام على شرط المعاملة بالمثل .

المادة (٩٣) تتعهد الجمهورية اللبنانية بمقتضى هذا الدستور تعهداً رسمياً أن تحكّم الدولة المنتدبة بتسوية الخلافات التي من شأنها أن تعكر جو الامن بينها وبين جيرانها وكل الدول الاخرى الراغبة في الاتفاق معها على ان تتضمن هذه الاتفاقات نصاً صريحاً يقضي بالزام الدول المتعاقدة بالتحكيم الاجباري في كل خلاف .

المادة (٩٤) تتفق الحكومة اللبنانية في ما بعد مع ممثل الدولة المنتدبة على إنشاء وكالة لبنانية في باريس ووظائف ملحقين لبنانيين بدور الاعتماد السياسية والقنصليات الافرنسية في البلاد الأجنبية حيث تدعو الحاجة الى ذلك بالنسبة الى عدد اللبنانيين المقيمين فيها . وتبذل الحكومة الافرنسية كل ما في وسعها في سبيل توثيق العرى التي تربط اللبنانيين المهاجرين بوطنهم الاصلي .

أما المواد المقترح تعديلها في (١ و ٢ و ٣ و ٥٢ و ٩٥) حيث رفع منها عبارات الدولة المنتدبة وصك الانتداب كما رفعت القيود التي تقيد رئيس الجمهورية في

المفاوضات في عقد المعاهدات الدولية وإبرامها، وأوجبت على رئيس الجمهورية عرض المعاهدات المتعلقة بالمسائل المالية والتجارية الملزمة على المجلس وحيث رفع ايجاب اعتبار اللغة الافرنسية لغة رسمية ثانية وجعل استعمال هذه اللغة منوطاً بقانون يحدد الاحوال التي تستعمل فيها .

ومن الجدير بالذكر أن الدستور السوري لم يكن فيه مثل هذه المواد الانتدابية ولم يدخل فيه الا ما يتصل بكيان الدولة ونظامها وفاقاً لدساتير الدول لأنه من وضع الجمعية التأسيسية ، وإن كان بونسو قد الحق به المادة السادسة عشرة وأدخل على بعض مواده التعديلات على ما ذكرناه في مناسبته ، في حين أن الدستور اللبناني هو من وضع الافرنسيين فقط قبله اللبنانيون أو نقبلوه كما كانوا يتقبلون كل ما يعرضه الافرنسيون دون تشاد ولا عناء ، ولهذا كانت مغالطة هيللو مفضوحة حينما قال ان الدستور عقدبين طرفين .. ولكن الافرنسيين لم يكونوا ليبالوا بمثل هذه النقائض ، ولا بما هو أخطر منها ...

وقد قرر المجلس النيابي النظر في التعديل على وجه الاستعجال بالرغم من محاولة اميل اده بالتأجيل ، وكان جو لبنان قد توتر من الموقف المتجهم الانذاري الذي وقفه المندوب الافرنسي باسم لجنة التحرير فزاد هذا التوتر من حماس المجلس الذي أقر التعديل بالاجماع تقريباً ووسط مظاهرة حماس بالغة ، وانسحب إده ورفيق له قبل التصويت ، وخطب فريق من النواب يمثلون مختلف الطوائف الاسلامية والمسيحية في سياق التصديق خطباً قوية في صدد الاستقلال والسيادة والعروبة .

— ٣ —

اعتقال رئيسي الجمهورية والوزارة ورفاقهم

وقد كان هيللو سافر الى الجزائر لبحث الموقف مع اللجنة وعلم بما تم فعاد مسرعاً ليحول دون نشر قرار التعديل في الصحف ؛ وفي صباح اليوم التالي أي بتاريخ ١١ تشرين الثاني من سنة ١٩٤٣ الباكر ؛ وكان هذا اليوم يوم ذكرى الهدنة وكان الافرنسيون دعوا إلى حفلة استعراضية بمناسبتها ، ارسل قوة فاعتقلت رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ورئيس مجلس النواب وبعض الوزراء والنواب الآخرين ، وبعث بهم محفورين إلى قلعة راشيا رغما عن وعده لوزير بريطانيا

المفوض الذي شعر بالجو المتكهرب بشرفه انه لن يفعل شيئا مثيراً ، وأصدر قراراً باقالة رئيس الجمهورية والوزارة وحل مجلس النواب وتعيين إدّه رئيسا للدولة، وقال إن التدابير المتخذة هي للوقوف امام مؤامرة عدائية ضد فرنسا، وإنه لا خوف على استقلال لبنان وسيادته ... وهذا هو ما أراد الافرنسيون ان يسيغوه من معنى الاستقلال والسيادة للبنان وسوريا . فاعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة والوزراء والنواب واقالتهم وحل مجلس النواب من قبل موظف افرنسي ليس من شأنه أن يتعارض مع الاستقلال والسيادة ! .

وقبل ادّه المنصب وأصدر بلاغا طلب فيه الاخلاد للسكينة وهدد من يحاول الاخلال بالامن بالعقاب الشديد !

وقبـــل يوم الاعتقال أعلن هيللو الحكومة اللبنانية سحبه دعوتها الى حفلة الاستعراض المنوي إقامتها في اليوم التالي باستثناء رئيس الجمهورية ولكن هـذا اعلنه رفض دعوته فلم يسع وزراء الدول الحليفة إلاّ إعلانه رفض الدعوة . وكان هذا مما زاد في توتر الجـو واشعر الوزير البريطاني بشيء مثير مبيت حاول هيللو تطمينه بنفيه لئلا ينسد له تدبيره وأقسم له على ذلك بشرفه الكريم !

ولقد استعملت القوة التي ذهبت للاعتقال وكان يقودها ضباط افرنسيون كل مظاهر الاهانة والارهاب والتشفي مع رجال الدولة حيث دخلوا عليهم في غرف نومهم التي كان بعض الزوجات يشاركن أزواجهم فيها ، وحيث كسروا الابواب والشبابيك ومزقـــوا الستائر عن بعضها ، وحيث كانوا يدفعون رئيس الجمهورية دفعا شديداً ويشتمونه ناعتين إياه بالرجل الوضيع ، وحيث لكموا عبد الحميد كرامي لكمات عديدة واعتقلوه بثياب نومه ، مما يدل على شدة الغيظ الذي استولى على السلطات الافرنسية وروح الحقد والصلف المتغلغلة في نفوسهم .

انفجار الشعب صدى أثر الحادث

ولم يكد القرار يذاع ويعرف الناس بأمر الاعتقالات حتى انفجر الهياج في لبنان كشرارة مست برميل البارود . فقامت المظاهرات واعلن الاضراب العام

في بيروت ثم عم لبنان وأنزل الافرنسيون فصائل السنغاليين للشوارع كما سيروا فيها الدبابات لارهاب الناس ، فأخذت الاشتباكات تقع بين الاهلين وبين القوات الافرنسية السنغالية ،واستشهد وجرح عدد كبير من الناس بينهم عدد من الاطفال ديسوا بالدبابات دوسا اندفاعا بما اعتاد الافرنسيون تكراره في مثل هذه الفرص من أن السوريين واللبنانيين كلاب يجب أن تداس ، كما اعتقل عدد كبير من مختلف الطوائف في بيروت وطرابلس وصيدا خاصة ، وتوترت الاعصاب توتراً شديداً ، واجتمع فريق من النواب مع الوزراء الذين لم يعتقلوا وقرروا تأليف حكومة طوارىء وطنية ، تمثلت فيها الطوائف ، كما عين نائب عن رئيس الجمهورية وأخذت الحكومة التي اتخذت بشامون احدى قرى الجبل المنيعة مقراً لها تصدر البلاغات للموظفين وتنذرهم بعدم اعتبار حكومة إده والتمرد عليها ، واستجاب الى ندائها جمهرة الموظفين فانشلت حكومة إده الذي لم يستطع أن يجد من يتعاون معه في تشكيل حكومة رئيسية أو وزارة ، وشرعت في اتخاذ التدابير للنضال الوطني ، وبدأت تشكل بعض العصابات المسلحة ويقع بعض اصطدامات بينها وبين قوى الافرنسيين ، واحتج البطرك الماروني والبطاركة الآخرون ورؤساء الدين الاسلامي على العدوان ، وأعلنوا تضامن المسلمين والنصارى في الموقف ، واتفقت منظمتا النجادة الاسلامية والكتائب النصرانية - وهما منظمتان كشفيتان من جهة وتشبه بعض التشكيلات العسكرية الحزبية من جهة اخرى - على الاندماج في بعض ، وذهب المسلمون للمساجد لصلاة الجمعة فحاولت السلطات منعهم لئلا يخرجوا بالمظاهرات فاقتحموا النطاق ووقف شباب النصارى يحرسون الأبواب ، وانحدت الصحف الاسلامية والنصرانية في الحملات القارعة ضد الافرنسيين ، واحتج وزراء الدول المفوضون احتجاجاً شديداً على البغي وخاصة على رئيس الدولة الذي هم مفوضون لديه وأخذوا يجتمعون حول الوزير البريطاني سبيرس لمعالجة الموقف.

وكان في ما جرى مظاهرة نسائية اشتركت فيها نساء مختلف الطوائف فأثار هذا الافرنسيين حتى صوبوا عليهن النار ؛ وقد هتفت بهن احداهن قائلة انه الأجدر بهم ان يظهروا بطولتهم في انقاذ فرنسا المهينة التي ترسف تحت ذل الالمان واحتلالهم بدلاً من اظهارها أمام نساء لبنان وشعب لبنان الاعزل من السلاح القليل الضعيف الذي لم يفعل شيئاً إلا انه أراد حريته واستقلاله ...

ولادة لبنانه العربي

وهكذا ولد لبنان ولادة عربية وطنية نضالية رائعة ولو انها تأخرت والتحق بقافلة النضال العربي في سبيل اهداف الحركة العربية من الاستقلال والسيادة ، وضد المستعمرين وأساليبهم الباغية وتزلزلت من تحت اقدام الأم الحنون ارض كانت تظنها أرضها المستقرة ، ووقفت تتمرد عليها امة كانت تظن انها من لحمها ودمها ، ونصلت الصبغة الافرنسية المموهة وظهرت صبغة لبنان العربية الطبيعية بفضل حمق الافرنسيين وروحهم الاستغلالية المتغطرسة وعمايتهم عن وزن الامور والظروف ...

وقد احيط أميل اده الذي وقف شاذاً بجو من الارهاب حتى انه لم يكن ينتقل بين دار الحكومة وبيته الا تحت الحراسة الشديدة ، وقد اطلق الرصاص على موكبه اكثر من مرة كما القيت على بيته عدة قنابل ..

- ٤ -

اثر العروبة في الامة العربية وتضامنها الرائع

ولقد كان للحادث رد فعل شديد وسريع في البلاد العربية ، فأعلن الاضراب العام في المدن السورية والفلسطينية والعراقية والأردنية ، وقامت المظاهرات الصاخبة فيها ، واستدعى الملك فاروق وزراء اميركا وانكلترا وحدثهما في الأمر منذراً طالباً الوقوف من بغي فرنسا موقف الحزم المتناسب مع هتافات الحرية والاستقلال ومبادىء ميثاق الاطلنطي التي بشروا العالم وخاصة الشعوب الصغيرة بها ، وحملت الصحافة المصرية حملات قارعة ، وكتب بعض الكتاب البارزين والمعروفين بحب فرنسا وتشبعهم بروحها وثقافتها قطعا تقريعية لاذعة ، وقد جاء في قطعة لتوفيق الحكيم مثلاً: خاب أملي في فرنسا انا الذي احب ثقافتها ونشر دعوتها وصدق كلامها في الحرية والمساواة والاخاء ، انا الذي بكى لمحنتها وتفجع لنكبتها وظن ان الحرية الانسانية انهارت بانهيارها وأن العدالة البشرية اندكت بتحطيم

جيشها . هل كان يخطر لنا على بال ان في هذا الجيش بقية من حمية تهب يوماً لا لكي تطرد من ارضها العدو المغير بل لتطأ بأقدامها استقلال شعب صغير ! بأي حق تتحدث فرنسا بعد اليوم عن حريتها وحرية الشعوب ؟ وبأي صفة تطالب الحلفاء بمقعد في هيئة الامم المشرفة على تحقيق العدالة الدولية ، من ذا يتطلع بعد اليوم الى فرنسا الرافعة علم الحريات ؟ لقد قدمت فرنسا الدليل على انها فقدت روحها القديم الذي جذب اليها الافئدة ! لقد ماتت في فرنسا تلك المعاني الرائعة التي نثرت نسمات الامل في النفوس (١) ! واثكلاه عليك يا فرنسا ! إن فجيعتي فيك اليوم يوم انهيارك لتتضاءل الى جانب فجيعتي فيك اليوم وانت تخنقين بيديك الواهنتين المرتعشتين حرية شعب ضعيف ناهض ! وارسلت هيئات مصر وشخصياتها البارزة احتجاجاتها ورفعت اصوات استنكارها ، وارسل الملك فاروق برقية عظيمة ممتلئة بالعواطف والتشجيع الى الشيخ بشاره لتقوم مقام مهمة بعثة التهنئة على رآسته التي كانت مزمعة على الرحلة الى بيروت من قبله ، وقد جاء فيها فيما جاء : ولا شك في ان شعب لبنان يتمتع باستقلاله وانه بالغ في ظل الحرية والعدالة والشرف ما هو جدير به من سيادة ومجد . ولست في حاجة الى ان أؤكد لفخامتكم ان الشعب اللبناني يستطيع ان يعتمد على صداقتنا وصداقة حكومتنا وشعبنا في ساعات الشدة والحرج ، ففي هذه الساعات وبها تتأكد العواطف وتتمكن المحبة . ان الساعات تمر بالشعوب وتمضي وتبقى الشعوب برجالها وسيبقى شعب لبنان . . » وارسل رئيس الوزارة المصرية وكان النحاس باشا برقيات احتجاجية شديدة الى انكلترا واميركا وفرنسا ، وكانت برقية للجنرال ديغول لاذعة التقريع ، واعلن البرلمان المصري استنكاره الشديد ، وصدف افتتاح هذا البرلمان في هذا الظرف فدخلت قضية لبنان في خطاب العرش معلناً فيه الاستنكار والتضامن . ومثل هذا جرى في العراق وفي سوريا ، حيث حدث رصي العراق ورئيس سوريا وزيري بريطانيا واميركا ، وحيث احتجت الحكومتان احتجاجات شديدة ، وحيث حملت الصحافة حملات قارعة ، وحيث شارك البرلمان السوري والعراقي الحكومة والشعب في الاحتجاج والاستنكار والتضامن .

(١) وفي هذا الكلام اثر من آثار اسطورة نمر فرنسا لحرية الشعوب وغفلة عن الدلائل التي قدمتها فرنسا المرة بعد المرة على انها في خارج فرنسا باغية ظالمة استعمارية عدوة للحرية والعدالة والاخاء والمساواة .

- ٥ -

موقف الانكليز من الحادث

ولقد كان موقف الانكليز مدهشاً عظيما . فالحكومة أعلنت استنكارها الشديد وأظهرت اهتمامها البالغ ، واحتجت على فرنسا وموقفها الباغي ، وقالت إنها لايحق لها أن تفعل ما فعلت بدون علمها ، وهي شريكتها في الموقف وضامنة لاستقلال لبنان وسيادته ، وإن ما فعلته من شأنه أن يضر بالغ الضرر بالجهود الحربية ، وأن فرنسا مدينة لها بوجودها في سوريا ولبنان ، وكان من أوجب واجباتها أن تفكر في ذلك قبل أن تقدم على ما أقدمت عليه . وأبدى البرلمان قلقه وخطب خطباؤه مستنكرين منددين . وحملت الصحافة الانكليزية حملات شديدة ونعتت فرنسا الحرة بأقبح النعوت ، وذكرتها بحالة فرنسا ومهانتها الحاضرة ، وقالت إنه كان يجدر بها بدلاً من عدوانها على استقلال شعب ضعيف وكرامته أن تقوم بواجبها في إنقاذ وطنها المهين وكسب عطف العالم بسبيل ذلك . وجاء كايسي وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط الى بيروت مرتين واحتج بشدة على تصرفات هيللو وقال له بصراحة إنه ارتكب أفظع خطأ ، وإن عمله من شأنه أن يثير مشاكل عظيمة في سبيل الجهود الحربية بسبب اختلال الأمن في الشرق الأوسط الذي سيحدث من جرائه ، واهتمت الولايات المتحدة الأميركية للموقف وأبدى روزفلت قلقه من تفاقم الحال وضرر اضطراب الامن في الشرق العربي في الجهود والحركات الحربية التي كانت في أشد أدوار احتدامها ، وقال إن ما فعلته فرنسا مخالف لميثاق الأطلانطي ومناقض لما يهتف به الحلفاء من حرية الشعوب واستقلالها والقضاء على الروح الاستعمارية الديكتاتورية .

نشاط الجنرال سبيرز

ولقد كان الجنرال سبيرز المفوض البريطاني عظيم النشاط في الأزمة ، وحاول أن يحول دونها ، فلما أخلف هيللو بوعده وأخل بالقسم الذي أقسمه له بشرفه على

أن لا يقدم على عمل مثير ازداد نشاطه واهتمامه حتى لكأنه اعتبر العمل صفعة مهينة له ؛ ولقد غدت دار المفوضية البريطانية منذ صباح الاعتقالات قطب حركة شديدة حيث كانت الوفود تترى عليها من مختلف الطوائف محتجة صاخبة مطالبة بالتدخل والحماية ؛ فكان يطمئن الناس ويبدي عطفاً شديداً على رجال الحكومة وفضيتهم ، ويتصل بحكومته اتصالاً مباشراً في صدد سرعة تدخلها مما جعـــل هذه الحكومة تبدي ذلك الاهتمام العظيم الذي أحبط عمل الافرنسيين وأرغمهم على التراجع عن بغيهم في النهاية ؛ ولذلك كان حقدهم في بيروت والجزائر مصبوباً في الدرجة الاولى عليه حتى وصل الأمر بهم في بيروت الى التآمر على حياته وإطلاق النار على الجماعات التي كانت تفد الى داره وإغراء الصبيان برجم سيارة زوجته حينما جاءت تزور زوجة رياض الصلح ، وإهانتها بعد سنتين حينما جاءت الى باريس بصفتها رئيسة البعثـــة الصحية التي كانت تألفت في سبيل فرنسا وجنودها !

٦ -

انفجار الشعب وتعضيد الانكليز في اللجنة الدبلوماسية وحمايتها

واستاءت اللجنة الدبلوماسية بطبيعة الحال أعظم استياء من اهتمام العالم العربي والانكلو أميركي لما حدث ؛ لأنهـــا رأت فيه تفويتاً للفرصة المتاحة لها للقضاء على حركة التحرر والعروبة التي قادها رياض الصلح ؛ وامتعضت خاصة من حمـــلات الانكليز ، وأرادت أن ترى فيها نيات مبيتة ضد مركز فرنسا وحقوقها ، كما اتهمت سبيرز بالتهييج والتآمر ضدها ؛ ولم تتخلّ عن حمقها وصلفها وروحهـــا الاستعمارية ومغالطاتها ، ولم تفكر لحظة في فظاعة العمل الذي أقدمت عليه فأخذت تبرره بحجة أن حكومة لبنان أرادت أن تتحدى فرنسا وتجعلها أمام أمر واقع ، وتتآمر على حقوقها ومصالحها التي لا يمكن أن تتخلى عنها ، كما أخذت تهاجم الدول التي تتدخل في امور لبنان التي لا تهم إلا فرنسا ولبنان ، والتي يجب أن تترك لهما وحـــدهما لتسويتها فيما بينهما ! ومما قالته إن مركز انكلترا ليس إلا عسكرياً بسائق الحرب ، وإنها ليس لها أن تدس أنفها في شؤون لبنان وتزعم لنفسها ضمان استقلاله ، وإن

حرية لبنان منوطة بفرنسا مما يصدق عليه بسبب ظروفها التي قالت فيها هذا القول المثل العربي القديم « است في الماء وأنف في السماء » ؛ وقد اتهمت رياض الصلح خاصة بسوء النية والتهييج والاستعانة بعناصر الشغب للضغط على الأفكار وتبييته خطة عدائية صريحة نحو فرنسا .

نراجعها مرغمة عما فعلت

على انها لم تر بدأ وقد ساقها العالم بألسنة حداد ، وتضامن العرب تضامناً قوياً مع لبنان من التراجع ؛ ولعلها خشيت أن يتفاقم الامر وتشتد اصابع الانكليز بالحركة فيصل الموقف الى التشطيب عليها ، ولاسيما انها لم تكن بعد شيئاً مذكوراً في الحرب والقوة وكانت شبه لاجئة في الجزائر ومدينة لبريطانيا بكل شيء حتى الخبز الذي تأكله هي وموظفوها والقوى التابعة لها ، دون أن تدرك أن عملها الاحمق قد اسكت أنصارها ومواليها وكان من العوامل التي قضت على وجودها في لبنان ونسفت كل الجهود الجبارة في سبيل خلودها فيه ؛ فأوفدت الجنرال كاترو لحل المشكلة على الوجه المناسب ، وجاء هذا الى القاهرة فاجتمع بكابيسي ثم الى بيروت ، وأخذ يتصل بمختلف الأوساط المسيحية والاسلامية ، وزار دمشق وتحدث مع رجالها في الموقف . ولم يلبث هيللو أن تلقى أمراً بالعودة الى الجزائر ، وأن اقيل بعض الموظفين الافرنسيين وارسلوا كذلك الى الجزائر ، وان اطلق سراح المعتقلين ، وان صدر من القائم بالاعمال قرار بالغاء القرار السابق مع اعتبار التعديل الدستوري لاغيا ، فعاد رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء الى مناصبهم ، والمجلس النيابي الى اجتماعاته ، وقامت مظاهرات الابتهاج قوية صارخة في بيروت حتى ان النواب رفعوا رئيس الجمهورية على اكتافهم وأدخلوه الى قصره كذلك . وشاركت بلاد العرب لبنان في ابتهاجه وفرحه وحماسه وانهالت منها عليه برقيات التهنئة الفياضة بعواطف الاخوة المبتهجة بولادة لبنان العربي . وجاءت بعثة الملك فاروق للتهنئة ، ورأس رياض الصلح بعثة الشكر ومعه غرسة من الارز لتغرس في ساحة قصر عابدين كرمز لهذا الشكر وخلوده فكان له استقبال عظيم متناسب مع تلك العواطف .

وقد اختفى اده عن العيون عندما رأى برادر تراجع الافرنسيين، وخصه المجلس النيابي في اولى جلساته وبافتراح من زعيم مسيحي فيه بقرار الاستنكار والاشمئزاز ثم ما لبث ان طرده من بين أعضائه ، فكان في هذا درس بليغ يلقنه لبنان في ولادته الجديدة على زعيم من زعماء الموارنة بل من كبارهم تولى رآسة دولة لبنان وكان له الأنصار والأتباع والمؤيدون الكثر لشذوذه المعيب في موقف وطني عصيب.

محاولات ومساومات كاترو

ومما كان ان كاترو احاول ان يساوم ليحفظ لفرنسا شيئاً من الهيبة فاستحضر الشيخ بشاره الخوري من راشيا مخفوراً وعرض عليه بعض العروض فرفضها فاعيد الى معتقله مخفوراً كذلك، وفعل مثل هذا مع رياض الصلح فأخفق، فلم يو بدأ من الحل المرضي، وأرسل اليه بعد أيام كتاباً يقول فيه ان لجنة الجزائر وافقت على منح لبنان جميع مطالبه وان التحفظات التي ابداها قد الغيت . ومن عجيب ما يذكر من أدلة حمق الافرنسيين وسوء نياتهم وشدة الغيظ الذي ثار في نفوسهم ان كاترو رغم محاولاته هذه غدا موضع حقد شديد من قبل الموظفين الافرنسيين لما كان منه من تسليم حتى ان بعضهم حاول التآمر على حياته على ما نشرته بعض الصحف في حينه . وعلى كل حال فقد كان التراجع الافرنسي تاماً متناسباً مع ولادة لبنان العربية الوطنية النضالية ومع الصلف والغطرسة والغرور والحمق الذي رافق الافرنسيين في جميع تصرفاتهم وفي موقفهم الباغي الاخير والذي ظل يعميهم عن ادراك حقائق وافعهم وواقع العالم ، وعدم ارعوائهم عن الغي واتعاظهم بالأحداث ، وكان من ذلك ان صرحوا عن ما في قلوبهم من غيظ وحسرة على انهم لم يتمكنوا من انزال بطشتهم الكبرى في اللبنانيين الذين خانوهم ، وان دفعهم هذا الغيظ والحسرة الى موقف غادر لئيم في سوريا بعد سنة ونصف مما كان سبباً في التشطيب لهم في لبنان وسوريا واقتلاع جذورهم منها . . .

- ٧ -

لبنان بعد انكشاف الغمة

وخرج لبنان من محنته فائزاً منصوراً بتبختر بحلته العربية الوطنية النضالية .

وقد اجتمع المجلس النيابي فكان اجتماعه مظاهرة وطنية عربية كبرى تبارى فيها خطباء النواب بالاشادة بالحرية والاستقلال والكرامة والتضامن العربي . ولقد كان النواب وحكومة الطوارىء قرروا إبدال العلم واخراج الارزة من حضانة العلم الافرنسي وجعله متسقاً مع الوان العلم العربي ، فرفع العلم على دار المجلس في اجتماعه الاول فكان ذلك تدشيناً رسمياً رائعاً لتقويض اركان فرنسا ومزاعمها في لبنان واستقلال لبنان عنها بكيانه العربي الجديد .

ولقد أقام البطرك الماروني وليمة لرئيس الجمهورية والوزارة فألقى خطبة بدأها بالبيت العربي المشهور :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

ثم قال فيما قال أما وقد أريق الدم في سبيل الاستقلال فلا شك في انه سيظل قائماً مستقراً .

وتبادل المسلمون والنصارى الزيارات في المساجد والكنائس بمظاهرات شعبية اخوية جياشة ، وقد انشد بعض المسيحيين في احدى الكنائس قصيدة جاء فيها :

إني بقرآني عرفت مسيحكم ورأيت في الانجيل وجه محمد

حيث كان كل هذا مشاهد جديدة سارة في حياة لبنان دعمت ولادته العربية ، وفقئت في عين المستعمر الباغي الذي مثل على مسرحه ابشع الأدوار ، واستغل خلاف طوائفه خاصة الأمم استغلال ، وكان مطمئنا بمركزه وخلوده وحيزه الشامل في لبنان كل الاطمئنان .

واقيمت حفلة تكريمية في صيدا خطب فيها رياض الصلح فقال ان شروط استقلال لبنان ثلاثة وهي ان يرغب فيه المسيحيون ويقبله المسلمون وتعترف به الاقطار العربية ، وقد تحققت هذه الشروط الثلاثة . فكان في هذا الايجاز تلخيص للوقائع وتدعيم لها .

وبدا ان الافرنسيين ظلوا يظنون ان اعلانهم إلغاء التعديل الدستوري ما يزال هو المعتبر ، فقطع رياض هذا الظن بتصريح في البرلمان قال فيه ان اعلان الالغاء ليس شرعياً فـــلا قيمة له ، وان ما تم قد تم وفقاً للدستور وهو المرعي المعتبر . وقد اثار هذا التصريح الافرنسيين ثانية وكادت ان تحدث ازمة جديدة ، واجتمع الوزراء في بيت رئيس الجمهورية واحضروا ما امكنهم من قوة استعداداً للطوارىء وتصميماً على الدفاع ، فكان ذلك باعثاً للافرنسيين على التراجع ثانية وبلعهم الشربة كرهاً بصورة الطوع . على انهم بعـد خمسة اشهر حرضوا بعض انصارهم فجاؤوا في مظاهرة الى البرلمان في احدى المناسبات وحاولوا انزال العلم الجديد ورفع العلم الافرنسي محله ودوت النار ، وكان مصير المحاولة الاخفاق .

— ٩ —

قوة العهد اللبناني العربي بعد الحادث

ومنذ انكشاف الغمة عن لبنان العربي الجديد اخذت تتهيأ له اسباب توطيد استقلاله وسيادته ، فاخذت تتوالى اعترافات الدول به ، واندمج في مشاورات الوحدة العربية في القاهرة التي انتهت بقيام جامعة الدول العربية وغدوه عضواً فيها ، واندمج كذلك بالتضامن والتشاور مع سوريا في ميثاق الاطلانطي واعلان حالة الحرب رسمياً مع دول المحور وبذل المساعي الناجحة في الاشتراك في مؤتمر سان فرنسيسكو وعَدوه كذلك عضواً مؤسساً في هيأة الامم معترفاً باستقـلاله وسيادته محرراً من اغلال الانتداب ووزره على الوجه الذي فصلنا الكلام عنه في الباب الأول .

تضامن لبنان وسوريا في تصفية مركز فرنسا وآثاره

ولقد اختط رجال العهدين في سوريا ولبنان خطة التضامن التام فيما بينهما في صدد تصفية الموقف مع فرنسا ، فامكن بذلك النجاح في استلام المصالح المشتركة

التي كانت في يد السلطات الانتدابية الافرنسية مباشرة . وسار رجال العهدين في هذه الخطة إزاء مطالب فرنسا التي تقدمت بها كشرط لتسليم الجيوش، فرفضها لبنان كما رفضتها سوريا ، ووقف لبنان الى جانب سوريا موقفاً قوياً في محنة مايس ١٩٤٥، وتضامن معها في الشكوى الى مجلس الامن وطلب الجلاء وتحقيقه أخيراً على ما ذكرناه كذلك في الباب الأول .

جلاء فرنسا عن لبنان

وفي ٣١ كانون الاول من عام ١٩٤٦ تم جلاء آخر جندي اجنبي عن لبنان ، وخفق العلم اللبناني العربي وحده في سمائه ، وكان ثاني بلد عربي تزول عنه غمة الاستعمار والاحتلال دون ما قيد ولا شرط ولا عهد . وقد سجلت ذكرى الجلاء عن لبنان على صخرة من صخور نهر الكلب التي سجلت عليها بعض احداث التاريخ اللبناني الكبرى بموكب حافل اشترك فيه وفود العرب .

الاستقبال بالرغم عن بعض المشاهد الحاضرة

وهكذا استوفى لبنان لقاء موقفه الوطني العربي هذا الثمن العظيم الذي كان يشك كل الشك في بلوغه حتى ولو بلغته سوريا بدون ذلك الموقف الذي كانت الفكرة العربية والحركة العربية ورجالها اصحاب الاثر الاقوى فيه ، لما كان من رسوخ قدم فرنسا في لبنان ماديا ومعنويا واعتبارها نفسها انها في ارضها ولما كان من الصلات الوثيقة والعواطف العميقة المتبادلة بينها وبين كثرة كبيرة من سكانه ،الامر الذي كان يقض من مضجع سوريا خاصة ،لأن خطرها يظل سيفا مصلتا فوق رأسها بسبب ذلك ، فضلاً عن انه كان يقض من مضجع اصحاب الفكرة العربية ورجال حركتها خشية من ان تقوى فرنسا على لبنان فيغدو إفرنسيا او بمثابة ذلك ، ويكون مقراً للاستعمار وممراً له الى غيره ..

ومع اننا لا نجهل ان تلك الكثرة من سكان لبنان ما زالت تحت تأثير تلك الصلات والعواطف ، وتحت تأثير العصبية اللبنانية المسيحية الضيقة المتجهة للعرب

والعروبة نتيجة لدسائس فرنسا ودعايتها بسبيل توطيـــد قدمها الاستعمارية في الشرق العربي ، ومع ان آثار ذلك تظهر حينا بعد حين قوية اليمة مرة تبعث في النفس الحسرة والتشاؤم وضعيفة مرة اخرى على السنة بعض رؤساء الدين والزعماء الماروئيين والكاثوليك عامة وبعض الصحف والمنظمات المسيحية والمارونية خاصة حيث يصل الامر احيانا الى الخروج عن كل منطق وكرامة والاساءه لبني لبنان ولبني سوريا وللعرب عامة بدون إثارة او استفزاز مما يظهر فيـــه اصابع فرنسا الدساسة أحيانا ومما ذكرنا بعض امثلة منه في مناسبة سابقة فإن الأمل غير ضعيف في ان يخف ذلك التأثير رويداً رويداً حتى يزول ، وحتى تتوطد الفكرة العربية في مسيحيي لبنان ومسلميه على السواء ، ويدرك الجميع ان في ذلك كرامة وطنهم وامتهم وعزتها وقوتها ومصلحتها معا ، ولا سيما إن رجال الحركة العربية قدروا منذ الاصل وما يزالون يقدرون بواعث الفكرة المستحكمة في نصارى لبنان وخاصة موارنته وهي ضرورة احتفاظ لبنان باستقلاله وكيانه واحترموها بسبيل تطمين نصاراه والتحاقه بقافلة العروبة التي تسير فيها بـــلاد العرب جمعاء والتحرر من اصابع فرنسا ومطامعها . بل وانه ليسرنا ان نسجل ان بوادر ذلك آخذة بالقوة والنمو يوما بعد يوم باتساع نطاق الفكرة العربية القومية والاستشعار بكرامة الاستقلال والسيادة وعزتها مما يبشر بالوصول الى الغاية المرجوة التي يتم فيها النصر للفكرة والحركة العربية واهدافها ان شاء الله .